شرح منهج الحق

منظومة في العقيدة والأخلاق

للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله تعالى

١٣٠٧ - ١٣٧٦ هـ

شرحها

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

طبع على نفقة بعض المحسنين

جزاهم الله خيراً وأعظم لهم المثوبة

شرح

منهج الحق

منظومة في العقيدة والأخلاق

للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي

رحمه الله تعالىٰ

١٣٠٧ – ١٣٧٦هـ

شَرَحَها

عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسِن البَدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمَّا بعد:

فهذه أبياتٌ عظيمةٌ ومنظومةٌ نافعةٌ للإمام العلَّامة الفقيه المفسِّر المحقِّق عبد الرَّحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر ابن سعدي ـ رحمه الله تعالى وغفر له ـ حوَت خيرًا كثيرًا، وفوائدَ عظيمةً في بيان «المنهج الحقِّ» الَّذي ينبغي أن يَلزَمه المسلمُ عقيدةً وعبادةً وخُلُقًا، وقد نظمَها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وقتٍ مبكِّر من حياته؛ في العقد الثَّالث من عمره ـ رحمه الله تعالى ـ[1]، وقرَّر فيها من المعاني العَظيمة والحقَائق الجليلة، والتَّفاصيل النَّافعة الَّتي لا غنى لمسلمٍ عنها، ولم يرِد تسميةٌ لها من ناظمِها رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإنَّما أُخِذ هذا الاسمُ مِن قوله في مستهلِّها: «فَيَا سَائِلًا عَنْ مَنْهَجِ الحَقِّ»، وقد بدأها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحَثِّ مَن يرجو لنفسِه السَّعادة وينشُدُ لها الفَوز في الدُّنيا والآخرة أن يحسِنَ التَّأمُّل في مضامينها وما حوَته مِن خيرٍ عظيم.

وقد يسَّر اللهُ الحصولَ على نسختَيْن خطِّيَّتين لهذه المنظومة، تفضَّل أحفاد الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببعثها إليَّ، ووَصْفُهما كما يلي:

---

(١) وذلك أنَّ الشَّيخ: نقل من هذه المنظومة أربعةَ عشر بيتًا متعلِّقَةً بفوائد الذِّكر في شَرحه لمنظومته في السَّير إلى الله والدَّار الآخرة، وقال في تمام الشَّرح: «فرغتُ منه ومِن نسخِه في ٣ شعبان سنةَ ١٣٣٣»، وكانت ولادتُه في ١٢ المحرَّم ١٣٠٧.

ـ الأولى: نسخة تامَّة عدا البيتين الأخيرَيْن، صدَّرها ناسخُها ـ وهو من طلَّاب الشَّيخ ـ بقوله: «هذه منظومةٌ تشتَمل على أقسام التَّوحيد: توحيد الإلهيَّة، وتوحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات، وعلى أمَّهات عقائد أهل السُّنَّة والجماعة الَّتي اتَّفقوا عليها، وعلى التَّفكُّر في مخلوقاتِ الله، وآياته الدَّالَّة عليه، وعلى أسمائه وصفاتِه، ومشتملة على التَّخلُّق بالأخلاق الجميلة، والتَّنزُّه من الأخلاق الرَّذيلة، إذ هذه الأمور أصول العُلوم وأمَّهاتها، وهي للشَّيخ عبد الرَّحمن بن ناصر السِّعدي ـ جزاه الله خيرًا آمين ـ، وهي هذه» ثمَّ ساق المنظومةَ، وقال في تمامها: «تمَّت غفَرَ الله لكاتبها وناظمِها وقارئِها ومَن قال آمين، وجميع المسلمين، وصلَّى اللهُ على محمَّدٍ ١٣٤٥هـ»، وقد رمزتُ لها بالحرف (م).

ـ الثَّانية: نسخةٌ ناقصةٌ سقط منها الأبيات: ٢٣، ٢٧، ٤٣، ٥٠ إلى ٦٢، مع تقديم وتأخير في بعض الأبيات، قال ناسخُها في أوَّلها: «هذا نظم الشَّيخ عبد الرَّحمن بن ناصر بن سعدي في العقيدة»، وقد رمزتُ لها بالحرف (ص).

وقد أثبتُّ ما رأيتُه الأقرب للصَّواب من حيثُ المعنى والوزن، وأشرتُ إلى الفروقات في الهامش، وبالله وحده التَّوفيق.

وأسألُ اللهَ الكريم أن ينفعَ بهذا النَّظم وشرحِه، وأن يجزيَ النَّاظمَ الشَّيخَ عبدَ الرَّحمن السِّعدي خير ما جزى عالمًا ناصحًا ومربِّيًا مصلِحًا إنَّه سميع مجيب، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

المدينة النَّبويَّة ـ في ٨ / ٨ / ١٤٣٢هـ

منظومة منهج الحقِّ في العقيدة والأخلاق(١)

١ـ فَيَا سَائِلًا عَنْ مَنْهَجِ الْحَقِّ يَبْتَغِي   سُلُوكَ طَرِيقِ الْقَوْمِ حَقًّا وَيَسْعَدُ

٢ـ تأمَّلْ هَدَاكَ اللهُ مَا قَدْ نَظَمْتُهُ   تَأَمُّلَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْحَقِّ يَقْصِدُ

٣ـ نُقِرُّ بِأَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ   إِلَٰهٌ عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ مُمَجَّدُ

٤ـ وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ مَعْبُودُنَا الَّذِي   نُخَصِّصُهُ بِالْحُبِّ ذُلًّا وَنُفْرِدُ

٥ـ فلِلَّهِ كُلُّ الحَمْدِ وَالمَجْدِ وَالثَّنَا   فَمِنْ أَجْلِ ذَا كُلٌّ إِلَى اللهِ يَقْصِدُ

٦ـ تُسبِّحهُ الْأَمْلَاكُ وَالْأَرْضُ وَالسَّمَا   وَكُلُّ جَمِيعِ الْخَلْقِ حَقًّا وَتَحْمَدُ

٧ـ تَنَزَّهَ عَنْ نِدٍّ وَكُفْءٍ مُمَاثِلٍ   وَعَنْ وَصْفِ ذِي النُّقْصَانِ جَلَّ الْمُوَحَّدُ

٨ـ وَنُثْبِتُ أَخْبَارَ الصِّفَاتِ جَمِيعَهَا   وَنَبْرَأُ مِنْ تَأْوِيلِ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ

٩ـ فَلَيْسَ يُطِيقُ الْعَقْلُ كُنْهَ صِفَاتِهِ   فسَلِّمْ لِمَا قَالَ الرَّسُولُ مُحَمَّدُ

١٠ـ هُوَ الصَّمَدُ الْعَالِي لِعِظْمِ صِفَاتِهِ   وَكُلُّ جَمِيعِ الْخَلْقِ لله يَصْمُدُ

١١ـ عَلِيٌّ عَلَا ذَاتًا وَقَدْرًا وَقَهْرُهُ   قَرِيبٌ مُجِيبٌ بِالوَرَى مُتَوَدِّدُ

١٢ـ هُوَ الْحَيُّ وَالْقَيُّومُ ذُو الجُودِ وَالْغِنَى   وَكُلُّ صِفَاتِ الحَمْدِ لله تُسْنَدُ

---

(١) مَن أرادَ سماعَ هذه المنظومة بقراءة موافقَة لهذا الضَّبط يمكنُه الدُّخول على الرَّابط التَّالي:
http://www.al-badr.net/qiroah-mnhj-haq.php

١٣ـ أَحَاطَ بِكُلِّ الخَلْقِ عِلْـمًا وَقُـدْرَةً وَبِـــرًّا وَإِحْـــسَانًا فَإِيَّـــاهُ نَعْبُـــدُ

١٤ـ وَيُـبْصِـرُ ذَرَّاتِ الْـعَوَالِـمِ كُلَّهَـا وَيَــسْمَعُ أَصْــوَاتَ الْعِبَــادِ وَيَــشْهَدُ

١٥ـ لَهُ الْـمُلْكُ وَالحَمْدُ الْـمُحِيطُ بِمُلْكِهِ وَحِكْمَتُهُ الْعُظْمَـى بِهَـا الخَلْـقُ تَـشْهَدُ

١٦ـ وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ يَـنْـزِلُ فِي الـدُّجَى كَـمَا قَالَـهُ الْـــمَبْعُوثُ بِـالحَقِّ أَحْمَـدُ

١٧ـ وَنَشْـهَـدُ أَنَّ اللهَ أَرْسَــلَ رُسْــلَهُ بِآيَاتِـــهِ لِلْخَلْـــقِ تَهْـــدِي وَتُرْشِـــدُ

١٨ـ وَفَاضَلَ بَيْنَ الرُّسْلِ وَالخَلْقِ كُلِّهِمْ بِحِكْمَتِــهِ جَــلَّ العَظِــيمُ الْـــمُوَحَّدُ

١٩ـ فَأَفْضَلُ خَلْقِ اللهِ فِي الأَرْضِ وَالسَّمَا نَبِـــيُّ الهُـــدَى وَالعَالَـــمِينَ مُحَمَّـــدُ

٢٠ـ وَخَصَّ لَهُ الرَّحْمٰنُ أَصْـحَابَهُ الأُلَى أَقَامُوا الهُـدَى وَالـدِّينَ حَقًّـا وَمَهَّـدُوا

٢١ـ فَحُبُّ جَمِيعِ الآلِ وَالصَّحْبِ عِنْدَنَا مَعَـاشِرَ أَهْـلِ الحَـقِّ فَـرْضٌ مُؤَكَّـدُ

٢٢ـ وَمِنْ قَوْلِ أَهْـلِ الحَـقِّ أَنَّ كَلَامَـهُ هُـوَ اللَّفْـظُ وَالمَعْنَـى جَمِيعًـا مُجَـوَّدُ

٢٣ـ وَلَيْسَ بِمَخْلُـوقٍ وَأَنَّـى لِخَلْـقِـهِ بِقَـــوْلٍ كَقَـــوْلِ اللهِ إِذْ هُـــوَ أَمْجَـــدُ

٢٤ـ وَنَشْهَدُ أَنَّ الـخَـيْـرَ وَالشَّـرَّ كُلَّـهُ بِتَقْـــدِيرِهِ وَالْعَبْـــدُ يَــسْعَى وَيَجْهَـــدُ

٢٥ـ وَإِيـمَـانُـنَا قَـوْلٌ وَفِـعْلٌ وَنِـيَّةٌ مِــنَ الخَــيْرِ وَالطَّاعَــاتِ فِيهَــا نُقَيِّــدُ

٢٦ـ وَيَزْدَادُ بِالطَّاعَاتِ مَعْ تَرْكِ مَا نَهَـى وَيَــنْقُصُ بِالعِـصْيَانِ جَزْمًـا وَيَفْـسُدُ

٢٧ـ نُـقِـرُّ بِـأَحْـوَالِ الـقِـيَامَةِ كُلِّهَا وَمَــا اشْــتَمَلَتْهُ الــدَّارُ حَقًّــا وَنَــشْهَدُ

٢٨ـ تَفَكَّرْ بِآثَارِ العَظِيمِ وَمَا حَوَتْ   مَمَالِكُـهُ العُظْمَى لَعَلَّكَ تَرْشُدُ

٢٩ـ أَلَمْ تَرَ هٰـذَا اللَّيْلَ إِذْ جاءَ مُظْلِمًا   فَأَعْقَبَهُ جَيْشٌ مِنَ الصُّبْحِ يَطْرُدُ

٣٠ـ تَأَمَّلْ بِأَرْجَاءِ السَّمَاءِ جَمِيعِهَا   كَوَاكِبُهَا وَقَّادَةٌ تَتَرَدَّدُ

٣١ـ أَلَيْسَ لِهَذَا مُحدِثٌ مُتَصَرِّفٌ   حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَاحِدٌ مُتَفَرِّدُ

٣٢ـ بَلَى وَالَّذِي بِالحَقِّ أَتْقَنَ صُنْعَهَا   وَأَوْدَعَهَا الأَسْرَارَ لله تَشْهَدُ

٣٣ـ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ مُوقِنًا   وَمَا تَنْفَعُ الْآيَاتُ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ

٣٤ـ وَفِي النَّفْسِ آياتٌ وَفِيهَا عَجَائِبٌ   بِهَا يُعْرَفُ اللهُ العَظِيمُ وَيُعْبَدُ

٣٥ـ لَقَدْ قَامَتِ الْآيَاتُ تَشْهَدُ أَنَّهُ   إِلٰـهٌ عَظِيمٌ فَضْلُهُ لَيْسَ يَنْفَدُ

٣٦ـ فَمَنْ كَانَ مِنْ غَرْسِ الْإِلَـهِ أَجَابَهُ   وَلَيْسَ لِمَنْ وَلَّى وَأَدْبَرَ مُسْعِدُ

٣٧ـ عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي فِعْلِ أَمْرِهِ   وَتَجْتَنِبُ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ وَتُبْعِدُ

٣٨ـ وَكُنْ مُخْلِصًا لله وَاحْذَرْ مِنَ الرِّيَا   وَتَابِعْ رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ

٣٩ـ تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمٰنِ حَقًّا وَثِقْ بِهِ   لِيَكْفِيكَ مَا يُغْنِيكَ حَقًّا وَتَرْشُدُ

٤٠ـ تَصَبَّرْ عَنِ العِصْيَانِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ   وَصَابِرْ عَلَى الطَّاعَاتِ عَلَّكَ تَسْعَدُ

٤١ـ وَكُنْ سَائِرًا بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالرَّجَا   هُمَا كَجَنَاحَيْ طَائِرٍ حِينَ تَقْصِدُ

٤٢ـ وَقَلْبَكَ طَهِّرْهُ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ   وَكُنْ أَبَدًا عَنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ

٤٣ـ وَجَمِّلْ بِنُصْحِ الخَلْقِ قَلْبَكَ إِنَّهُ لَأَعْلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وَأَجْوَدُ

٤٤ـ وَصَاحِبْ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ يَقُودُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ

٤٥ـ وَإِيَّاكَ وَالْمَرْءَ الَّذِي إِنْ صَحِبْتَهُ خَسِرْتَ خَسَارًا لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدُ

٤٦ـ خُذِ العَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ

٤٧ـ تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا فَلَيْسَتْ إِقَامَةً وَلَكِنَّهَا زَادٌ لِمَنْ يَتَزَوَّدُ

٤٨ـ وَكُنْ سَالِكًا طُرْقَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا إِلَى المَنْزِلِ البَاقِي الَّذِي لَيْسَ يَنْفَدُ

٤٩ـ وَكُنْ ذَاكِرًا لله فِي كُلِّ حَالَةٍ فَلَيْسَ لِذِكْرِ الله وَقْتٌ مُقَيَّدُ

٥٠ـ فَذِكْرُ إِلٰهِ الْعَرْشِ سِرًّا وَمُعْلَنًا يُزِيلُ الشَّقَا وَالهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ

٥١ـ وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيَا وَآجِلًا وَإِنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشَرِّدُ

٥٢ـ فَقَدْ أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ يَوْمًا لِصَحْبِهِ بِأَنَّ كَثِيرَ الذِّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْرِدُ

٥٣ـ وَوَصَّى مُعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلٰهَهُ عَلَى ذِكْرِهِ وَالشُّكْرِ بِالحُسْنِ يَعْبُدُ

٥٤ـ وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قَدْ أَتَى لِنَصِيحَةٍ وَقَدْ كَانَ فِي حَمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَدُ

٥٥ـ بِأَنْ لَا يَزَلْ رَطْبًا لِسَانُكَ هٰذِهِ تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَتُسْعِدُ

٥٦ـ وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لِأَهْلِهِ بِجَنَّاتِ عَدْنٍ وَالمَسَاكِنُ تُمْهَدُ

٥٧ـ وَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ يَذْكُرُ عَبْدَهُ وَمَعْهُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ يُسَدِّدُ

٥٨ـ وَأَخْـبَرَ أَنَّ الـذِّكْرَ يَبْقَـى بِجَـنَّـةٍ   وَيَنْقَطِـعُ التَّكْلِيـفُ حِـينَ يُخَلَّـدُوا

٥٩ـ وَلَوْ لَـمْ يَكُنْ فِي ذِكْـرِهِ غَـيْرَ أَنَّـهُ   طَرِيــقٌ إِلَى حُــبِّ الْإِلَــهِ وَمُرْشِــدُ

٦٠ـ وَيَنْهَى الفَتَى عَـنْ غِيبَـةٍ وَنَمِيمَـةٍ   وَعَــنْ كُــلِّ قَــوْلٍ لِلدِّيَانَــةِ مُفْــسِدُ

٦١ـ لَكَـانَ لَنَـا حَـظٌّ عَظِيــمٌ وَرَغْبَـةٌ   بِكَثْــرَةِ ذِكْــرِ اللهِ نِعْــمَ الْمُوَحِّــدُ

٦٢ـ وَلَكِنَّنَـا مِـنْ جَهْــلِنَا قَـلَّ ذِكْرُنَـا   كَــمَا قَــلَّ مِنَّــا لِلْإِلَــهِ التَّعَبُّــدُ

٦٣ـ وَسَلْ رَبَّكَ التَّوْفِيقَ وَالفَـوْزَ دَائِـمًا   فَـمَا خَـابَ عَبْـدٌ لِلْمُهَـيْمِنِ يَقْـصِدُ

٦٤ـ وَصَلِّ إِلٰهِي مَعْ سَـلَامٍ وَرَحْـمَــةٍ   عَلَى خَيْرِ مَنْ قَـدْ كَـانَ لِلْخَلْـقِ يُرْشِـدُ

٦٥ـ وَآلٍ وَأَصْحَابٍ وَمَنْ كَـانَ تَابِعًـا   صَــلَاةً وَتَــسْلِيمًا يَــدُومُ وَيَخْلُــدُ

شرح المنظومة

١ـ فَيَا سَائِلًا عَنْ مَنْهَجِ الْـحَقِّ يَبْتَغِي   سُلُوكَ طَرِيـقِ الْقَـوْمِ حَقًّـا وَيَـسْعَدُ

بدأ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه المنظومةَ العَظيمةَ بهذا النِّداء؛ نداء النَّاصِح المشفِق المربِّي، فقال: «**فَيَا سَائِلًا عَنْ مَنْهَجِ الحَقِّ**»؛ أي: يا مَن يُريد لنفسِه منهجَ الحقِّ والطَّريق المستَقيم والهدي القَويم الَّذي تكونُ به نجاتُه وفلاحُه وسعادتُه في الدُّنيا والآخِرة.

وفي هذا تصحيح النِّيَّة في السُّؤال، وهو أمرٌ تمسُّ الحاجةُ إليه، فمِن النَّاس مَن لا يوفَّق لصلاح النِّيَّة في سؤاله، وصلاحُها أن ينوي السَّائلُ بسؤاله رفعَ الجهل عن نفسِه وعن غيره، وأن يكونَ في سُلُوكه وسَيْره إلى ربِّه ـ تبارك وتعالى ـ على صراطٍ مستقيم وعلى جادَّةٍ سويَّة.

«**عَنْ مَنْهَجِ الحَقِّ**» المنهج: هو الطَّريق البيِّنُ الواضح، و«**منهج الحقِّ**» هو السَّبيل الَّذي ينبغي أن يسلكَه المسلمُ والطَّريق الَّتي يمضي عليها في عقيدته وعبادته وخُلقه.

«**يَبْتَغِي سُلُوكَ طَرِيقِ القَوْمِ حَقًّا وَيَسْعَدُ**»؛ أي: يبتغي بسؤاله عن منهج الحقِّ هذين الأمريْن: سلوكَ طريق القَوم حقًّا، وأن يسعَدَ في دنياه وأُخْراه، فجمع بين: الوسيلة والغاية، قال ابنُ القيِّم: «فها هُنا أمران: طريقةٌ وغايةٌ؛ فالطَّريقةُ الهدى، والغاية السَّعادة والفَلاح؛ فمَن لم يسلك هذهِ الطَّريقَةَ لم يصل إلى هذه الغاية»[1].

و«**طَرِيقِ القَوْمِ**» هو الطَّريق المُستَقِيم الَّذي لا اعوجاجَ فيه، طريق النَّبيِّ ﷺ

(١) «الصَّواعق المرسَلة» (٣/ ١١٢٨).

وصحبِه الكرام ﭫ، فالمراد بالقَوم هنا: أي الكُمَّل الَّذين وفَّقهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للعناية بالخير علمًا وعملًا فكانوا قدوةً لمن بعدَهم.

قال الأوزاعيُّ ﵀: «اصبر نفسَك على السُّنَّة، وقِفْ حيثُ وَقَفَ القَوم، وقُل بما قالوا وكُفَّ عما كفُّوا عنه، واسلُكْ سبيلَ سَلَفِك الصَّالح فإنَّه يسَعُك ما وسِعَهُم»(١).

وكتب عُمَر بن عبد العزيز إلى رجل: «سلامٌ عليك، أمَّا بعد: فإنِّي أوصيكَ بتقوى الله، والاقتصاد في أمرِه، واتِّباع سنَّة رسوله، وتركِ ما أحدثَ المُحدِثُون بعدَما جرَت به سنَّتُه، وكُفُوا مؤنتَه، ثمَّ اعلم أنَّه لم تكن بدعةٌ قطُّ إلَّا وقَد مضى قبلَها ما هُو دليلٌ عليها، وعبرةٌ فيها، فعَليكَ بلزُوم السُّنَّة، فإنَّها ـ بإذن الله ـ لك عصمَةٌ، فإنَّ السُّنَّة إنَّما سنَّها مَن قَد علِمَ ما في خِلافِها مِن الخطأ والزَّلل، والحُمق والتَّعمُّق، فارضَ لنفسِك بما رضِيَ به القَومُ لأنفُسِهم، فإنَّهم عن علمٍ وقَفُوا وببَصَرٍ نافذٍ كفُّوا، وهُم كانوا على كَشْف الأمُور أقوى، وبفَضل ما كانوا فيه أَوْلى، فإنَّهم السَّابقون، ولئن كان الهدى ما أنتُم عليه لقَد سبقتُمُوهم إليه، ولئن قلتَ حدَثَ بعدَهُم حدَثٌ، فما أحدَثَه إلَّا مَن خالفَ سبيلَهم، ورغِبَ بنفسِه عنهم، ولقد تكلَّموا منه بما يكفي، ووصَفُوا منه ما يشْفِي، فما دونَهم مقصَرٌ، ولا فوقَهم محسَرٌ، لقد قصَّر عنهم أقوامٌ فجَفَوْا، وطمحَ عنهُم آخَرُون فغَلَوا، وإنَّهم بينَ ذلكَ لعلى هدى مستقيم»(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، قال ابنُ القيِّم ﵀ في «مدارج السَّالكين»(٣):

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (١/ ١٥٤).
(٢) «سنن أبي داود» (٤٦١٢)، و«الإبانة الكبرى» لابن بطَّة (١/ ٣٢٢)، و«الشَّريعة» (٥٢٩).
(٣) (١/ ٥٩).

«ولا ريبَ أنَّ ما كانَ عليه رسولُ الله وأصحابُه عِلْمًا وعَمَلًا وهُو معرفةُ الحقِّ وتقديمُه وإيثارُه على غيرِه، هو الصِّراطُ المستَقيمُ».

وإذا عرفَ السَّالكُ مكانةَ أهل الطَّريق السَّابِقِين فيه لم يستَوحِشْ، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في «مدارج السَّالكين»[1]: «قالَ بعضُ السَّلفِ: «عليكَ بطريق الحقِّ ولا تسْتَوحِشْ لقلَّة السَّالكين، وإيَّاكَ وطريقَ الباطل ولا تغترَّ بكثرة الهالكين»، وكلَّما استوحشت في تفرُّدك فانظُر إلى الرَّفيق السَّابق، واحرِصْ على اللَّحاق بهم، وغُضَّ الطَّرف عمَّن سِواهُم، فإنَّهم لن يُغْنُوا عنكَ منَ الله شيئًا، وإذا صاحُوا بكَ في طريق سَيْرِك فلا تَلتَفت إليهم، فإنَّك متى التفَتَّ إليهم أخذُوك وعاقُوك».

وبتأمُّل طريق القَوم وسَبْر منهَجِهم ـ رحمَهُم الله ورضيَ عنهُم ـ ثمَّ النَّظر بعد ذلك إلى حال أنفسِنا نُدركُ كثرةَ تفريطِنا، وعظَمَ تقصيرِنا في لزوم منهجِهم مواظبةً على العبادةِ، ورعايةً لأعمال القُلوب، وعنايةً بالأخلاق الكريمة الفاضِلة، وإكثارًا مِن ذِكر الله إلى غير ذلك مِن حِليةِ القَوم وزينَةِ السَّلف؛ والله المستعان.

«حَقًّا»؛ أي: لا ادِّعاءً؛ لأنَّ مِن النَّاس مَن يكونُ انتسابُه لطريق الحقِّ مجرَّدَ ادِّعاء، وفرْقٌ بين مَن يدَّعي لنفسِه سلوكَ طريق القَوم دونَ أن يسلُكَها، وبينَ مَن سلكَها بالفِعل، وما أكثَر الأدعياءَ حتَّى إنَّ أناسًا أهل بدعٍ وضلالاتٍ؛ بل وشركيَّاتٍ ما أنزلَ اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ بها من سُلطان يدَّعون أنَّهم على طريقة القَوم وعلى نَهْج الصَّحابة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ، «وأئمَّة السُّنَّة ليسُوا مثلَ أئمَّة البدعة، فإنَّ أئمَّةَ السُّنَّة تضافُ السُّنَّة إليهم؛ لأنَّهم مظاهِر بهم ظهَرَت، وأئمَّةُ

(١) (١/ ٢٢).

البدعة تُضافُ إليهم؛ لأنَّهم مصادِر عنهم صَدَرت»[1].

«وَيَسْعَدُ» وهي الغاية المنشودة ولا سعادةَ للعبدِ في دُنياه وأُخراه، ولا نجاةَ إلَّا بذلكَ، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣﴾ [سُورَةُ طه]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [سُورَةُ النَّحل]؛ فمَن كانَ على نهج الصَّحْب الكِرام وتابِعِيهم بإحسانٍ حقًّا، مخلصًا لله، متَّبعًا لرسُوله صلواتُ الله وسلامُه عليه فهو السَّعيد.

٢ـ تأمَّلْ هَدَاكَ اللهُ مَا قَدْ نَظَمْتُهُ ... تَأَمُّلَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْحَقِّ يَقْصِدُ[2]

«تأمَّلْ» أي: انظُر هذا النَّظمَ بتأمُّل وتدبُّر وإعادةِ نظرٍ مرَّةً بعد أُخْرى حتَّى تثبُتَ معانيه، وترسَخَ مضَامينُه.

«هَدَاكَ اللهُ»؛ وهذه دعوةٌ مباركةٌ من النَّاظم رَحِمَهُ اللهُ لقارئ هذه المنظومةِ ومُطالِعِها، والمعنى: أي كتبَ الله لكَ سبيلَ الهداية وجعلكَ من عبادِه المهتَدين، والهداية تتناول سلوكَ طريقِ الحقِّ، والثَّباتَ عليه، والعلمَ بتفاصيله، والمحافظةَ على ذلك إلى الممات، قال الإمامُ ابنُ رجب رَحِمَهُ اللهُ في «جامع العلوم والحكم»[3]: «وأمَّا سؤالُ المؤمن منَ الله الهداية، فإنَّ الهدايةَ نوعان: هداية مجملةٌ، وهي الهدايةُ للإسلام والإيمانِ وهي حاصلةٌ للمُؤمنِ، وهدايةٌ مفصَّلَةٌ:

---

(١) «درء التَّعارض» لابن تيميَّة (٥/ ٥ـ٦).

(٢) في نسخة (ص): يرشد.

(٣) (٢/ ٤٠).

وهي هدايةٌ إلى معرفةِ تفاصيلِ أجزاءِ الإيمانِ والإسلام، وإعانتِه على فِعل ذلك، وهذا يحتاجُ إليه كلُّ مؤمِنٍ ليلًا ونهارًا، ولهذا أمر اللهُ عبادَه أن يقرؤوا في كُلِّ ركعةٍ من صلاتهم قولَه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [سُورَةُ الفَاتِحَةِ]، وكان النَّبيُّ ﷺ يقولُ في دعائه باللَّيل: «**اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».

«**مَا قَدْ نَظَمْتُهُ**»؛ أي ما أودعْتُه في هذه المنظومَة من معانٍ عظيمةٍ، وتفاصيلَ نافعةٍ في العقيدة والعبادةِ والأخلاق.

«**تَأَمُّلَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلحَقِّ يَقْصِدُ**» أي: ليكُن تأمُّلك لهذه المنظومة تأمُّلَ شخصٍ يريدُ الحقَّ ويبحثُ عنه، وهذا أيضًا فيه دعوةٌ إلى تصحيح النِّيَّة، فلا يكن تأمُّلك لهذا النَّظم لمجرَّد الاطِّلاع ونحو ذلك، وإنَّما ليكن غرضُك قصدَ الحقِّ ونيلَ رضا الرَّبِّ ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في «التِّبيان»[1]: «والهدى التَّامُّ يتضمَّنُ توحيدَ المطلوبِ، وتوحيدَ الطَّلب، وتوحيدَ الطُّرُق الموصِلة، والانقطاعُ وتخلُّفُ الوصولِ يقعُ من الشَّركة في هذه الأمُور أو في بعضِها؛ فالشَّركة في المطلوبِ تُنافي التَّوحيدَ والإخلاصَ، والشَّركة في الطَّلب تُنافي الصِّدقَ والعزيمةَ، والشَّركة في الطَّريق تُنافي اتِّباعَ الأمر؛ فالأوَّل يوقِعُ في الشِّركِ والرِّياءِ، والثَّاني يوقِعُ في المعصيةِ والبطالَةِ، والثَّالث يوقِعُ في البدعةِ ومفارقَة السُّنَّة، فتأمَّله؛ فتوحيدُ المطلوبِ يعصمُ من الشِّرك، وتوحيدُ الطَّلب يعصمُ من المعصيةِ، وتوحيدُ الطَّريق يعصِمُ من البدعة، والشَّيطانُ إنَّما ينصبُ فخَّه بهذه الطُّرق الثَّلاثة».

---

(١) (ص٨٢).

٣ـ نُـقِـرُّ بِـأَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَـيْـرُهُ إِلَـٰهٌ عَـلَى الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ مُمَجَّـدُ

«نُقِرُّ» من أَقَرَّ يُقِرُّ، والإقرار يتناول أمرين: تصديقَ القلب، وإذعانَه ؛ أي: نصدِّق منقادِين لهذا الحقِّ والهدى.

«بِأَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ»؛ أي: بأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ متفرِّدٌ بالرُّبوبيَّة لا شريكَ له فهو الخالقُ وحده، المالكُ وحده، المدبِّرُ وحده، لا شريكَ له في شيءٍ من ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابنُ كثير في «تفسيره»[(١)]: «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادةِ له، والتَّوكُّلِ عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ أي: أطلبُ ربًّا سِواه، وهو ربُّ كلِّ شيء، يُرَبِّينِي ويحفظُني ويكلَؤُني ويُدَبِّر أمري، أي: لا أتوكَّل إلَّا عليه، ولا أنيبُ إلَّا إليه؛ لأنَّه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، وله الخلقُ والأمْرُ».

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في «مجموع الفتاوى»[(٢)]: «والرَّبُّ: هو المربِّي الخالقُ الرَّازقُ النَّاصِرُ الهادي، وهذا الاسمُ أحقُّ باسم الاستعانة والمسألةِ».

«إِلَهٌ»؛ والإله: هو المعبودُ الَّذي يُؤْلَه ويُحبُّ ويُخضَع له، وتُصرف له أنواع العبادة؛ فهذا الرَّبُّ الَّذي لا ربَّ غيرُه هُو المعبود الَّذي ليسَ لنا معبودٌ سِواه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢]، قال ابنُ رجب رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «كلمة الإخلاص»[(٣)]: «والإله:

(١) (٦/ ٢٥٢).

(٢) (١٤/ ١٣).

(٣) (ص٢٣).

هُو الَّذي يُطاع فلا يُعصى، هيبةً له وإجلالًا ومحبَّةً وخوفًا، ورجاءً وتوكُّلًا عليه، وسؤالًا منه ودعاءً له، ولا يصلُحُ ذلك كلُّه إلَّا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فمَن أشركَ مخلوقًا في شيء من هذهِ الأمور الَّتي هي مِن خصائص الإلهيَّة، كان ذلكَ قدحًا في إخلاصِه في قول لا إلهَ إلَّا الله، ونقصًا في توحيدِه[1]، وكان فيه من عبوديَّة المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كلُّه من فروع الشِّرك».

فالعبادةُ والخضوعُ إنَّما هي للرَّبِّ العَظيم والخالقِ الجليلِ ـ تبارك وتعالى ـ، المتفرِّد بالرُّبوبيَّة لا شريكَ له، فيجبُ أن يُفرد بالعِبادة لا ندَّ له.

«**عَلَى العَرْشِ العَظِيمِ**» هذه صفةٌ للعَرش، والعَرشُ: سقفُ المخلوقاتِ وأعلاها وأكبَرُها، والله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفَ العرشَ بالعظيم؛ لأنَّه أكبر المخلوقاتِ وأوسَعُها، والمعنى: أنَّ هذا الرَّبَّ مستوٍ على العَرش العظيم استواءً يليقُ بجلاله وكمالِه وعظمتِه كما أخبر عن نفسِه بذلكَ في مواضعَ من كتابه؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [سُورَةُ طه]، وقال في ستَّة مواضِعَ من القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

«**مُمجَّدُ**» أي: له ـ تبارك وتعالى ـ المجد والثَّناء، وهو أهلُ المجد ـ تبارك وتعالى ـ، والمجدُ هو السَّعَة، والممجَّد أي: الَّذي له التَّمجيد والثَّناء الواسِعُ الَّذي لا حصر لهُ ولا إحصاءَ، وقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[2].

---

(١) كذا في الأصل والصَّواب أن يُقال: «نقصًا لتَوحيده» ولهذا الاشتباه حذفَ بعضُ أهلِ العلم هذه الجملةَ عند نقل هذا النَّصِّ عن ابنِ رجَب.

(٢) مسلم (٤٨٦).

٤ـ وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ مَعْبُودُنَا الَّذِي نُخَصِّــصُهُ بِالحُــبِّ ذُلًّا[1] وَنُفْــرِدُ

«**وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ مَعْبُودُنَا**»؛ وهذه شهادةُ التَّوحيد ومدلولُ كلمةِ التَّوحيد «لا إلهَ إلَّا الله»، أي: المعبود بحقٍّ ولا معبودَ بحقٍّ سِواه؛ المستحقُّ لِأَنْ يُفردَ بالحبِّ، والذُّلِّ والخضُوع والانكسار، ثمَّ بيَّن معنى ذلك فقال:

«**الَّذِي نُخَصِّصُهُ بِالحُبِّ ذُلًّا**»؛ وهذا هو معنى العبادة الَّتي يجبُ أن يُفرد الرَّبُّ ـ تبارك وتعالى ـ بها؛ غاية الذُّلِّ مع غايةِ الحبِّ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فالحبُّ بدون ذلٍّ ليس عبادةً، والذُّلُّ بدون حبٍّ ليس عبادةً، وهذَا أمرٌ يجبُ أن يُفرَدَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ به، ولهذا قال: «**نُخَصِّصُهُ**» أي: نُفرده بذلكَ ونخصُّه به، ولا نجعَلُ معه ـ تبارك وتعالى ـ شريكًا في شيءٍ من ذلكَ.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في «مدارج السَّالكين»[2]: «العبوديَّة تجمعُ كمالَ الحبِّ في كمال الذُّلِّ، وكمال الانقياد لمراضِي المحبوبِ وأوامره، فهيَ الغايةُ الَّتي ليسَ فوقَها غاية».

وقال رَحِمَهُ اللهُ في «مدارج السَّالكين» أيضًا[3]: «وروحُ العبادةِ: هو الإجلالُ والمحبَّةُ، فإذا تخلَّى أحدُهما عن الآخر فسَدَت».

«**وَنُفْرِدُ**»؛ أي: نُفرده ـ جلَّ وعلا ـ بالحبِّ والذُّلِّ.

---

(١) في نسخة (ص): شوقا.

(٢) (٣/ ٤٤١).

(٣) (٢/ ٤٩٥).

٥ـ فلِلَّهِ كُلُّ الحَمْـدِ وَالمَجْـدِ[١] وَالثَّنَـا فَمِـنْ أَجْـلِ ذَا كُـلٌّ إِلَى الله يَقْـصِدُ

«**فلِلَّهِ كُلُّ الحَمْدِ وَالمَجْدِ وَالثَّنَا**»؛ «**الحَمْدِ**» هو ذكرُ صفاتِ المحمودِ مع حبِّهِ وتعظيمِهِ وإجلالِه، «**وَالمَجْدِ**» توسيعها والزِّيادة في قَدرِها وصفتِها، «**وَالثَّنَا**» تكرير المحامد وتثنيتُها، وهذه الثَّلاثة اجتمَعَت في فاتحة الكتاب، ففي حديثِ أبي هُريرة عن النَّبيِّ ﷺ أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قال: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ ـ أي: الفاتحة ـ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قَالَ الله تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي**»[٢].

وجُمعت أيضًا في الذِّكر الَّذي يُقال عند الرَّفع من الرُّكوع: «**اللَّهمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلءُ مَا شِئتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ**»[٣].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في «درء تعارض العقل والنَّقل»[٤]: «والثَّناء تكرير المحامد وتثنيتُها كما في الحديث الصَّحيح عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «**إذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال الله: حمدني عبدني، فإذَا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ قال: أثنَى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قال: مجَّدني عبدي**»،

---

(١) في نسخة (م): كلُّ المجْدِ والحَمْد.

(٢) مسلم (٣٩٥).

(٣) مسلم (٤٧٧).

(٤) (٤/ ١٦ـ١٧).

وفي «الصَّحيح» عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسِه من الرُّكوع قال: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**» فذكَر الحمدَ والثَّناءَ والمجدَ هُنا كما ذكره في أوَّل الفاتحة؛ فالحمد يتناول جنسَ المحامد، والثَّناء يقتَضي تكريرَها وتعديدَها والزِّيادةَ في عددِها، والمجد تعظيمَها وتوسيعَها والزِّيادةَ في قَدرها وصفتِها؛ فهو سبحانه مستَحِقٌّ للحمدِ والثَّناءِ والمجدِ، ولا أحد يحسنُ أن يحمده كما يحمدُ نفسَه، ولا يثني عليه كما يثني على نفسِه، ولا يمجِّده كما يمجِّد نفسَه».

«**فَمِنْ أَجْلِ ذا**»؛ والإشارة إلى كلِّ ما سبق، أي: من أجل كونه الرَّبَّ والمعبودَ بحقٍّ الَّذي يجبُ أن يُفرد بالحبِّ والذُّلِّ والخضوع، وأنَّه ـ تبارك وتعالى ـ له الحمدُ والمجدُ والثَّناء.

«**كُلٌّ إِلَى اللهِ يَقْصِدُ**»؛ أي: كلٌّ يتَّجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلًّا وخضوعًا؛ لأنَّه الكامل في جميع صفاته وأفعاله الَّذي يَصْمدُ الخلائق إليه في حوائجهم ومسائلهم، وهذا فيه ذكرُ عبوديَّة جميع الكائنات لله ـ سبحانه وتعالى ـ كما يوضِّح ذلكُم في البيت الَّذي بعده.

٦ـ تُسبِّحهُ الْأَمْلَاكُ وَالْأَرْضُ وَالسَّمَا وَكُـلُّ جَمِيـعِ الْـخَلْقِ حَقًّـا وَتَحْمَـدُ

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾**﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ]، والصَّحيح أنَّ هذا التَّسبيحَ والحمد لهذه الكائنات بلسانِ المقالِ والله ـ تبارك وتعالى ـ على كلِّ شيءٍ قدير، ولقد رأى الصَّحابة ﷺ من ذلك آيات؛ فسمعوا حصياتٍ

تسبِّح في يد النَّبيِّ ﷺ[1]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ**»[2]، فهو تسبيحٌ وحمدٌ وثناءٌ على الله ـ تبارك وتعالى ـ بلسانِ المقال، وليسَ بلسانِ الحال.

قال الشَّيخ محمَّد الأمين الشَّنقيطي: «والتَّحقيق: أنَّ تسبيح الجبال والطَّير مع داود المذكور تسبيحٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ يجعل لها إدراكاتٍ تسبِّحُ بها، يعلمُها هو ـ جلَّ وعلا ـ ونحنُ لا نعلمُها، كما قال: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا**﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢]، وقد ثبت في «صحيح البخاري» أنَّ الجذع الَّذي كان يخطبُ عليه النَّبيُّ ﷺ لَّما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سُمِع له حنينٌ؛ وقد ثبت في «صحيح مسلم» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي مَكَّةَ**» وأمثال هذا كثيرة.

والقاعدة المقرَّرة عند العلماء أنَّ نصوص الكتاب والسُّنَّة لا يجوز صرفُها عن ظاهرها المتبادَر منها إلَّا بدليل يجبُ الرُّجوع إليه»[3].

---

(١) رواه البزَّار (٤٠٤٠، ٤٠٤٤)، و الخلَّال في «السُّنَّة» (٣٥١)، و الطَّبراني في «الأوسط» (٤٠٩٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) مسلم (٢٢٧٧).

(٣) «أضواء البيان» (٤/ ٦٧٢).

٧ـ تَنَزَّهَ عَـنْ نِـدٍّ وَكُـفْـءٍ[1] مُـمَـاثِلٍ وَعَنْ وَصْفِ ذِي النُّقْصَانِ جَـلَّ المُوَحَّـدُ[2]

«تَنَزَّهَ» أي: تقدَّس، والتَّنزيه: هو التَّقديس والتَّسبيح والتَّبرئة، وما ينزَّه عنه الرَّبُّ ـ جلَّ وعلا ـ يتلخَّص في أمرين ذكرهما في هذا البيت:

ـ الأوَّل: «عَنْ نِدٍّ وَكُفْءٍ مُمَاثِلٍ» هذه ألفاظ جاءت في القرآن وهي متقاربة المعاني ولا ترادفَ بينها؛ فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ منزَّهٌ عن النِّدِّ والكُفء والمثال كما قالَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [سُورَةُ الإخلَاصِ]، وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورَى: ١١].

وضابطه: تنزيهه عن أن يُشاركه أحدٌ من الخلق في شيء من خصائصِه الَّتي لا تكون لغَيره، وذلك كالزَّوجة، والشَّريك، والكفؤ، والظَّهير، والشَّفيع بدون إذنِ الله، والوليِّ من الذُّلِّ، فكلُّ ذلك يُنزَّه عنه اللهُ ـ جلَّ وعلا ـ وتقدَّس.

ـ والثَّاني: «وَعَنْ وَصْفِ ذِي النُّقْصَانِ» أي: وممَّا ينزَّه اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ عنه النَّقائص والعيوب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَت: ٤٦]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ [فَاطِر: ٤٤]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مَرْيَم: ٦٤]؛ هذا كلُّه تنزيه لله ـ تبارك وتعالى ـ عن النَّقائص والعيوب.

وضابطُه: أن ينزَّه سبحانَه عن كلِّ ما يناقضُ ما وصفَ به نفسَه أو وصفَه

(١) في نسخة (ص): تقدَّس عن كفء وندٍّ.

(٢) في نسخة (ص): الممجَّد.

به رسولُه ﷺ ممَّا يضادُّ الصِّفات الكاملة كالنَّوم واللُّغوب والموتِ والجهل والظُّلم والغفلةِ والنِّسيان، وعن احتياجه إلى طعام ورزق ونحو ذلك.

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ في «مجموع الفتاوى»[(١)]: «فهو منزَّهٌ عن النَّقص المضادِّ لكماله، ومنزَّهٌ عن أن يكونَ له مِثْلٌ في شيء من صفاته، ومعاني التَّنزيه ترجع إلى هذين الأصلين».

«**المُوَحَّدُ**»؛ أي: الَّذي يجب أن يُفرد بالتَّوحيد العلميِّ والعمليِّ؛ لأنَّ التَّوحيد نوعان: علميٌّ وعمليٌّ؛ العلمي: صفات الله وأفعاله يُفرد بها فلا يُجعل معه شريكٌ في شيء من ذلك، والعملي: القُربات والعبادات المطلوب منَ العبد فعلها أيضًا يُفرد بها ـ جلَّ وعلا ـ فلا يُصرف لأحدٍ سواه شيءٌ من ذلك.

٨ـ وَنُثْبِتُ أَخْبَارَ الصِّفَاتِ جَمِيعَهَا وَنَبْرَأُ مِنْ تَأْوِيلِ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ

«**وَنُثْبِتُ أَخْبَارَ الصِّفَاتِ**»؛ أي: نؤمن بها ونقِرُّ ولا ننكر شيئًا منها؛ فجميع الصِّفات الواردة في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نثبتها ونقرُّ بها ولا نجحد شيئًا منها، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «لا يُوصفُ الله إلَّا بما وصفَ به نفسَه، أو وصفَهُ به رسولُه ﷺ، لا يتجاوَزُ القرآن والحديث»[(٢)].

«**جَمِيعَهَا**» فيه التَّنبيه إلى أنَّ باب الصِّفات واحد، والقول فيها واحد؛ فهي كلُّها تُثبَتُ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ كما أثبتَها هو ـ جلَّ وعلا ـ لنفسِه، وكما أثبتها له رسولُه ـ صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ـ.

---

(١) (١٦/ ٩٨).

(٢) ذكره شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٦).

«**وَنَبْرَأُ مِنْ تَأْوِيلِ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ**»؛ التَّأويل: التَّحريف، قال ابنُ القيِّم: «والتَّحريفُ نوعان: تحريفُ اللَّفظِ، وتحريفُ المعنَى، فتحريفُ اللَّفظِ: العُدُولُ به عن جِهَتِه إلى غيرها، إمَّا بزيادةٍ وإمَّا بنقصانٍ، وإمَّا بتغيير حَرَكةٍ إعرابيَّةٍ وإمَّا غيرِ إعرابيَّةٍ، فهذه أربعةُ أنواعٍ.

وأمَّا تحريفُ المعنى: وهو العُدُولُ بالمعنى عن وجهِه وحقيقتِه، وإعطاءُ اللَّفظِ معنى لفظٍ آخرَ بِقَدرٍ مَا مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُما»[1].

و«**الجَحْد**» الإنكار والتَّعطيل، أي: نتبرَّأ من هذا المسلك؛ مسلَك التَّأويل للصِّفات المُفضي للجَحْد والتَّعطيل، الَّذين يُفسِّرونها بغيرِ مُرَادِ الله قَصْدًا منهم وافتراءً وتحريفًا للكَلِم عن مواضعِه، والغرض التَّكذيب والجحد، فنكون على حذَرٍ منه وبُعْدٍ عنه.

٩ـ فَلَيْسَ يُطِيقُ الْعَقْلُ كُنْـهَ صِـفَاتِهِ   فـسَلِّمْ لِــمَا قَـالَ الرَّسُـولُ مُحَمَّـدُ

«**فَلَيْسَ يُطِيقُ العَقْلُ كُنْهَ صِفَاتِهِ**»؛ وهذا فيه إبطال التَّكييف، وأنَّ العقول مهما بلغت ذكاءً وحِذقًا وفطنةً لا يمكن أن تبلغَ العلمَ بكُنه صفاتِ الله ـ تبارك وتعالى ـ، وكلُّ كمالٍ يخطر بالبال ويدور في الخيال فالله أعظمُ من ذلك وأجلُّ ـ سبحانه وتعالى ـ، وهُو ـ عزَّ وجلَّ ـ أعظم مِن أن تبلغَ كُنه صفاتِه وكيفيَّة نعوتِه عقولُ النَّاس مهما أوتوا من الذَّكاء، فالعقول عاجزةٌ وكالَّةٌ وغير مطيقةٍ ولا قادرةٍ على ذلك، ولهذا قال رَحِمَهُ اللهُ: «**فَلَيْسَ يُطِيقُ العَقْلُ كُنْهَ صِفَاتِهِ**» أي: العقل عاجزٌ عن ذلك، و«**الكُنْه**»: الكيف، وقد سُئِلَ مالكٌ رَحِمَهُ اللهُ فقيلَ له: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [سُورَةُ طه] كيف اسْتَوى؟

---

(١) «مختصر الصَّواعق المرسلة لابن القيِّم» (ص: ٣٣٣) بتصرُّف.

فقال: «الاستواءُ معلُومٌ، والكيف مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ»[1].

فقوله: «الاستواءُ مَعْلومٌ»، أي في لغةِ العربِ.

وقولُه: «والكَيْفُ مجهولٌ»، أي: كيفيّةُ استوائِهِ ـ سبحانه وتعالى ـ لا يَعْلَمُ كُنْهها وكيفيَّتها إلَّا هو سبحانه.

وقوله: «الإيمانُ به واجبٌ»، لتكاثرِ الأدلَّةِ من الكتابِ والسُّنَّة في إثبات ذلك، والسُّؤالُ عنه ـ أي: عن الكيف ـ بدعةٌ، ففرَّق مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ بين المعنى المعلوم من هذه اللَّفظة، وبين الكيفِ الَّذي لا يعقلُه البشر.

وإجابةُ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وغيرِهِ تعدُّ جوابًا كَافيًا شافيًا في جميع مسائل الصِّفات، فإذا سُئل أحدٌ عن المجيءِ أو النُّزول أو السَّمع أو البصر أو غير ذلك فأجاب بجواب مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كان جوابُه وافيًا، فيقال مثلًا: المجيءُ معلومٌ والكيفُ مجهولٌ، وكذلك مَن سُئل عن الغضب والرِّضى والضَّحك وغيرِ ذلك، فمعانيها كلُّها مفهومة، وأمَّا كيفيَّتها: فغير معقولة إذ تعقُّل الكيفيَّة فرعُ العلم بكيفيَّة الذَّات وكُنْهها؛ فإذا كان ذلك غير معقول للبشر؛ فكيف يعقل لهم كيفيَّة الصِّفات؟!

«**فَسَلِّمْ لِمَا قَالَ الرَّسُولُ مُحَمَّدُ**»؛ لأنَّ الرِّسالة من الله، وعلى الرَّسول ﷺ البلاغ، وعلينا التَّسليم؛ فإنَّه ﷺ قد بلَّغَ الرِّسالة كما أُمر ولم يكتُم منها شيئًا، والواجبُ على كلِّ مسلمٍ تصديقُه في كلِّ ما أَخبَر به، قال الزُّهريُّ: «مِنَ الله الرِّسالةُ، وعلى رسول الله ﷺ البلاغ، وعلينا التَّسليمُ»[2].

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٧/ ٤٢٤).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» في كتاب التَّوحيد تعليقًا، باب قول الله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ**﴾.

وقال الإمامُ الشَّافعيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: «آمنتُ بالله، وبما جاء عن الله على مُراد الله، وآمنتُ برسولِ الله، وبما جاء عن رسولِ الله على مُراد رسولِ الله»[1].

فمَن كان على قدم التَّسليم كان على سبيل النَّجاة والفَوز، أمَّا مَن كان ـ والعياذ بالله ـ لا يسلِّم بل يتلقَّى الأخبار سواء أخبار الصِّفات أو غيرها بالاعتراض أو الانتقاد أو نحو ذلك فهذا في سبيلِ هَلَكَة.

١٠ـ هُوَ الصَّمَدُ الْعَالِي لِعِظْمِ صِفَاتِهِ[2] وَكُلُّ جَمِيعِ الْخَلْقِ لله يَصْمُدُ[3]

«**الصَّمَدُ**» السَّيِّد الَّذي كمُل في سُؤدده، ومَن تصمدُ نحوه القلوب بالرَّغبة والرَّهبة وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة له، وهو اسمٌ من أسماء الله الحسنى ورد في سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [سُورَةُ الإخلَاصِ]، ثمَّ بيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ في تمام البيت معناه وأنَّ الصمد يدلُّ على أمرين:

ـ **الأوَّل**: عظم صفاته ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فهو «**الصَّمَدُ لِعِظْمِ**» ـ أي لعظَم ـ صفاته، فهو الصَّمد الَّذي له صفات العظمة والجلال والكمال، العظيم الَّذي كمُل في عظمته، العليم الَّذي كمُل في علمه، الحكيم الَّذي كمُل في حكمتِه، فالصَّمد الَّذي له الصِّفات العظيمة الجليلة.

ـ **الثَّاني**: أنَّ جميع الخلق لله تصمد؛ أي: تفزعُ في حاجاتها ورغباتها وطلباتها، وتلجأ إليه وحده.

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٦/ ٣٥٤).

(٢) في نسخة (ص): العظيم صفاته.

(٣) في نسخة (ص): تصمد.

فالصَّمد يدلُّ على هذين المعنيين، وأحدهما مترتِّب على الآخر.

١١ـ عَلِيٌّ عَلَا ذَاتًا وَقَدْرًا وَقَهْرُهُ[١] قَرِيبٌ مُجِيبٌ بِالوَرَى مُتَوَدِّدُ

«عَلِيٌّ»؛ وهذا اسمٌ من أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ ورد في مواضع من القرآن منها آخر آية الكرسي: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة]، وهذا الاسم دالٌّ على ثبوت معاني العلوِّ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فهو عليٌّ بذاته فوقَ مخلوقاتِه مستوٍ على عرشِه استواءً يليقُ بجلاله وكمالِه وعظمتِه ـ سبحانه وتعالى ـ؛ ولهذا لَمَّا ذكر النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الاسمَ أتبعَه ببيان معناه قال: «عَلِيٌّ عَلَا ذَاتًا» هذا المعنى الأوَّل: أي علا بذاته ـ سبحانه وتعالى ـ.

والمعنى الثَّاني: «قَدْرًا»؛ أي: علا قدرًا؛ فهو ـ تبارك وتعالى ـ له الكمال والعظمة والجلال، وقد قال الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

والمعنى الثَّالث: «قَهْرُهُ» أي: علوُّ القهر، وهذا أيضًا من معاني العلوِّ، وهو ثابت لله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

فهذه ثلاثةُ معانٍ للعلوِّ يدلُّ عليها اسمُ الله ـ تبارك وتعالى ـ (العليُّ).

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مدارج السَّالكين»[٢]: «من لوازم اسم العليِّ العلوَّ المطلَق بكلِّ اعتِبار، فله العلوُّ المطلَق من جميع الوجُوه: علوُّ القَدر، وعلوُّ القَهر، وعلوُّ الذَّات، فمن جَحَد علوَّ الذَّات فقَد جَحَد لوازمَ اسمِه العليِّ».

---

(١) في نسخة (ص): عليٌّ علوَّ الذَّاتِ والوصْفِ ربُّنا.

(٢) (١/ ٣١).

«قَرِيبٌ مُجِيبٌ»؛ وهذان اسمانِ لله ـ تبارك وتعالى ـ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، فالقريب اسمٌ من أسماء الله وهو دالٌّ على قُربه، والمراد بالقُرب: أي قُربه ـ سبحانه وتعالى ـ من أوليائه المقرَّبين وعبادِه المتَّقين، وهو خاصٌّ بهم يسمعُ دعاءهم، ويجيبُ نداءَهم، ويثيبُهم على طاعاتهم وعباداتِهم وقُرُباتِهم.

والمجيبُ: الَّذي يجيبُ مَن دعاه، قال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غَافِر: ٦٠].

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في «مجموع الفتاوى»[1]: «وليسَ في القُرآن وصفُ الرَّبِّ تعالى بالقُرب مِن كلِّ شيءٍ أصلًا، بل قُربه الَّذي في القُرآن خاصٌّ لا عامٌّ؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، فهو سبحانه قريبٌ ممَّن دعاه، وكذلك ما في «الصَّحيحين» عن أبي موسَى الأشعَري: أنَّهم كانوا مع النَّبيِّ ﷺ في سفرٍ فكانوا يرفَعُون أصواتَهم بالتَّكبير فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاس! ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا ، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَه أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»[2]، فقال: «**إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ**» لم يقل: إنَّه قريبٌ إلى كلِّ موجود، وكذلك قول صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [سُورَةُ هُود]، هو كقول شُعيب: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [سُورَةُ هُود]، ومعلومٌ أنَّ قولَه: ﴿قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ مقرونٌ بالتَّوبة والاستِغفار أرادَ

---

(١) (٥/٤٩٣).

(٢) البخاري (٢٩٩٢، ٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

به قريبٌ مجيبٌ لاستغفار المستَغفِرين التَّائبين إليه كما أنَّه رحيمٌ ودودٌ بهم، وقد قَرَن القَريبَ بالُمجيب، ومعلومٌ أنَّه لا يقالُ: إنَّه مجيبٌ لكلِّ موجود، وإنَّما الإجابةُ لمن سألَه ودعاه، فكذلك قُربه سبحانه وتعالى.

«**بِالوَرَى مُتَوَدِّدُ**» قال شيخُ الإسلام في «مجموع الفتاوى»[1]: «الودُّ: اللُّطف والمحبَّة؛ فهو يودُّ عبادَه المؤمنينَ، ويجعلُ لهم الودَّ في القُلوب كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦**﴾ [مريم] قال ابنُ عبَّاس وغيرُه: «يحبُّهم ويحبِّبُهم إلى عباده»»؛ ومِن أسمائه ـ تبارك وتَعالى ـ الحسنى: «الودود»، وهو ـ جلَّ وعلا ـ «**بِالوَرَى مُتَوَدِّدُ**»: أي يتلطَّف ويتودَّد إلى عبادِه بأصنافِ النِّعم وأنواع المنَن وتنوُّع الألطاف والإحسان.

ومن عجبٍ أنَّ العبد في غاية الفَقر والاحتياج إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومع ذلكَ فإنَّ كثيرًا من النَّاس لا يحرصُ أن يتودَّد إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويطلبُ محابَّه ورِضاه ـ سبحانه وتعالى ـ، والرَّبُّ ـ جلَّ وعلا ـ غنيٌّ عن العباد وعن طاعاتِهم وعن عباداتِهم، وهو ـ جلَّ وعلا ـ يتودَّد إلى عباده بالنِّعم والمنن والدَّعوة إلى التَّوبة، وإذا تابَ التَّائبُ فرح ـ سبحانه وتعالى ـ بتوبتِه مع كمالِ غِناه، فلا تنفعُه طاعةُ مَن أطاع، ولا تضرُّه معصيةُ مَن عصى، قال ابنُ القيِّم في «الفوائد»[2]: «ليس العجبُ من مملوك يتذلَّلُ لله ويتعبَّد له ولا يملُّ خدمتَه مع حاجتِه وفَقره إليه، إنَّما العجبُ مِن مالكٍ يتحبَّبُ إلى مملوكه بصُنُوف إنعامِه، ويتودَّدُ إليه بأنواع إحسانِه مع غِناه عنه».

---

(١) (٣٥/ ٣٦٩).

(٢) (ص: ٧١).

١٢ـ هُوَ الـحَيُّ وَالْقَيُّومُ ذُو الجُودِ وَالْغِنَى وَكُــلُّ صِــفَاتِ الحَمْــدِ[1] لله تُــسْنَدُ

«**هُوَ الحَيُّ وَالقَيُّومُ**» **الحيُّ**: الَّذي له الحياةُ الكاملةُ الَّتي لم تُسبق بعَدم ولا يلحقُها فناءٌ ولا يعتَريها نقصٌ، و**القيُّوم**: القائم بنفسِه المُقيم لخلقِه، هو دالٌّ على كمال غِناه وكمالِ قُدرتِه ـ سبحانه وتعالى ـ، وهذان الاسمانِ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وردا في مواضِع منَ القرآن منها آية الكرسي.

وإلى هذين الاسمين ترجعُ جميع الصِّفات؛ فالصِّفاتُ الذَّاتيَّة ترجع إلى اسمِه «الحي»، والصِّفات الفعليَّة ترجع إلى اسمِه «القيُّوم»، قال ابنُ القيِّم في «زاد المعاد»[2]: «فإنَّ صفَةَ الحياة متضمِّنةٌ لجميع صفاتِ الكمال مستَلزمةٌ لها، وصفةُ القيُّوميَّة متضمِّنةٌ لجميع صفاتِ الأفعال، ولهذا كانَ اسمُ الله الأعظم الَّذي إذا دُعِي به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى، هو اسم الحيُّ القيُّوم».

«**ذُو الجُودِ**» أي: الإنعام والإكرام والتَّفضُّل والإحسان، وهو ـ جلَّ وعلا ـ أجود الأجوَدين وأكرمَ الأكرمين ـ سبحانه وتعالى ـ، وكلُّ جودٍ وفضلٍ وكرمٍ فهو من منِّه وفضلِه وجودِه ـ سبحانه وتعالى ـ، قال تعالى: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ** ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ** ﴾ [النحل: ١٨]، قال ابنُ القيِّم رحمه الله في «مدارج السَّالكين»[3]: «الجود كلُّه له، وأحبُّ ما إليه أن يجودَ على عبادِه، ويوسِعُهم فضلًا، ويغْمُرَهُم إحسانًا وجودًا، ويُتِمَّ عليهم نعمتَه، ويُضَاعِف لديهم منَّته، ويتعرَّفَ إليهم بأوصافه وأسمائه، ويتحبَّبَ إليهم بنعمه وآلائه، فهو الجواد لذاتِه، وجُود

(١) في نسخة (ص): الجود.

(٢) (٤/ ٢٠٤).

(٣) (١/ ٢١١).

كلِّ جوادٍ خلقَه الله ويخلُقُه أبدًا أقلُّ من ذرَّة بالقياس إلى جُودِه، فليس الجوادُ على الإطلاق إلَّا هو، وجُود كلِّ جوادٍ فمِن جُودِه ومحبَّتِه للجُود والإعطاء والإحسانِ والبرِّ والإنعام والإفضال، فوقَ ما يخطر ببال الخلق أو يدور في أوهامِهم».

«**وَالغِنَى**» أي: هو ـ سبحانه وتعالى ـ غنيٌّ غنىً ذاتيٌّ عن جميع خلقِه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، غنيٌّ عن عباده لا تنفعُه طاعاتُهم، ولا تضرُّه معاصيهم، وفي الحديث القُدسي: «**يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**»[1].

«**وَكُلُّ صِفَاتِ الحَمْدِ لله تُسْنَدُ**» أي: أنَّ المحامد كلَّها ثابتةٌ لله تُضاف إليه ـ سُبحانه وتعالى ـ و«**تُسندُ**» ؛ له الحمد على أسمائه، وله الحمدُ على صفاته، وله الحمدُ على أفعاله، وله الحمدُ على نعمِه ومنَنِه وأفضالِه وعطاياه، فالحمدُ كلُّه لله ربِّ العالمين.

١٣ـ أَحَاطَ بِكُلِّ الخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَبِرًّا وَإِحْسَانًا فَإِيَّاهُ نَعْبُدُ

«**أَحَاطَ بِكُلِّ الخَلْقِ**»؛ من أسمائه الحسنى ـ تبارك وتعالى ـ «المحيط» أي: الَّذي له جميع معاني الإحاطة.

«**علمًا**» فـ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، يعلم ما كان وما سيكونُ وما لم يكُنْ لو كانَ كيفَ يكونُ، أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [سورة الطلاق].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٧٧).

«وَقُدْرَةً» فلا يُعجِزُه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، ماضٍ فيهم حكمُه، نافذةٌ مشيئتُه، وهو ـ تبارك وتعالى ـ على كلِّ شيء قدير.

«وَبِرًّا وَإِحْسَانًا»؛ فكلُّ فضلٍ بالعباد وإنعامٍ وإكرامٍ منَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ، هو الَّذي تفضَّل به وأنعم وتكرَّم ـ جلَّ وعلا ـ، شمل الكائنات بأسرها ببرِّه ومنِّه وعطائه، فهو مُولي النِّعم، واسعُ العطاء، دائمُ الإحسان، لم يزَل ولا يزَال بالبرِّ والعطاء موصوفًا، وبالمنِّ والإحسان معروفًا، تفضَّل على العباد بالنِّعم السَّابغة، والعطايا المتتابعة، والآلاءِ المتنوِّعة، ليس لجوده وبرِّه وكرمِه مقدار، فهو سبحانه ذو الكَرم الواسع والنَّوال المتتابع، والعطاء المدرار.

«فَإِيَّاهُ نَعْبُدُ»؛ أي: هذا الموصوفُ بهذه الصِّفات المنعوت بهذه النُّعوت «إِيَّاهُ نَعْبُدُ»: أي نخصُّه بالعبادة ونُفردُه بالحبِّ والذُّلِّ والطَّاعة، كما قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ [سُورَةُ الفَاتِحَةِ]؛ أي: نعبدك ولا نعبدُ غيرَك، ونستعينُ بكَ ولا نستعينُ بغيرِك.

١٤ـ وَيُبْصِرُ ذَرَّاتِ الْعَوَالِمِ كُلَّهَا   وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ وَيَشْهَدُ

«وَيُبْصِرُ ذَرَّاتِ العَوَالِمِ كُلَّهَا»؛ فيه إثباتُ أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصيرٌ ببصر يرى ـ سبحانه وتعالى ـ به جميعَ الكائنات وكلَّ المخلوقات، يرى «ذَرَّاتِ العَوَالِمِ كُلَّهَا» أي: الأمور الصَّغيرة الدَّقيقة الَّتي لا يراها الإنسانُ ببصره؛ فالله ـ جلَّ وعلا ـ يرى ذلك كلَّه فكيف بما هُو أعظم وأكبر!! وهو ـ سبحانه وتعالى ـ يرى مِن فوقِ سبع سماوات دبيبَ النَّملة السَّوداء على الصَّخرة الصَّمَّاء في اللَّيلة

الظَّلماء، ونملةٌ بهذه الصِّفة ـ سوداء وفي ليلة ظلماء وعلى صخرة صمَّاء ـ مَن يراها من النَّاس حتَّى لو دنا واقتربَ منها؟ وربُّ العالمين ـ جلَّ وعلا ـ يراها من فوق سبع سماوات؛ بل ويرى كلَّ جزء من أجزائها وجريان القُوت في ذلك الجسم النَّحيل، فلا يعزُبُ عنه ـ سبحانه وتعالى ـ شيءٌ.

قال ابنُ القيِّم في «طريق الهجرتين»[1]: «البصير الَّذي لكمال بصره يرى تفاصيل خَلْق الذَّرَّة الصَّغيرة وأعضائها ولحمِها ودمِها ومخِّها وعروقِها، ويرى دبيبَها على الصَّخرة الصَّمَّاءِ في اللَّيلة الظَّلماءِ، ويَرى ما تحتَ الأرضين السَّبع كما يرى ما فوقَ السَّموات السَّبع...».

«**وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ العِبَادِ**» فيه إثباتُ أنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ سميعٌ بسمع، يسمعُ جميعَ الأصواتِ ما كان منها عاليًا أو خافتًا ﴿**سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ**﴾ [الرعد: ١٠] كلُّه سواءٌ عند الله ربِّ العالمين، من أخفى القول وكتمه، ومن جهر به وأظهره، فالسر والجهر عند الله سواء، وأيضًا في المعلومات الغيب والشَّهادة عنده سواءٌ، والسِّرُّ والعلانيةُ عنده سواء ـ تبارك وتعالى ـ، لا تخفى عليه ـ عزَّ وجلَّ ـ خافيةٌ في الأرض ولا في السَّماء.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «السَّميع الَّذي قد استَوى في سمعِه سرُّ القَول وجهرُه، وسعَ سمعُه الأَصواتَ، فلا تختلفُ عليه أَصواتُ الخلق ولا تشتَبهُ عليه ولا يشغلُه منها سمعٌ عن سمع، ولا تغلطُه المسائلُ، ولا يبرمُه كثرةُ السَّائلين، قالت عائشة: «الحمد لله الَّذي وسعَ سمعُه الأَصوات، لقد جاءَت المجادلةُ تشكُو إِلى رسولِ الله ﷺ وإنَّه ليَخفَى عليَّ بعضُ كلامِها، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿**قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى**

(١) (ص: ٢٢٣ـ٢٢٤).

تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [سُورَةُ المُجَادَلَةِ]»[1].

ولو اجتَمع العبادُ أجمعون مِن أوَّلهم إلى آخِرهم، إنسِهم وجنِّهم، ذكورِهم وإناثِهم، صغارِهم وكبارِهم في صعيدٍ واحد، ودَعَوا في لحظةٍ واحدة؛ كلٌّ بلهجة، وكلٌّ بحاجة لسَمع ـ تبارك وتعالى ـ أصواتَهم أجمعين دونَ أن يختلط عليه صوتٌ بصوتٍ أو لغةٌ بلغة أو حاجةٌ بحاجة، وفي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ**»[2].

«**وَيَشْهَدُ**» أي: ويطَّلع عليهم، ومن أسمائه ـ تبارك وتعالى ـ الحسنى: «الشَّهيد»، قال الله تعالى: ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾**﴾ [سُورَةُ الفَتْحِ]، ومن معاني الشَّهيد: المطَّلع على العباد وعلى أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم فلا تخفَى عليه ـ تبارك وتعالى ـ منهم خافية.

١٥ـ لَهُ الْـمُلْكُ وَالحَمْدُ الْـمُحِيطُ بِمُلْكِهِ وَحِكْمَتُهُ الْعُظْمَى بِهَا الخَلْقُ تَشْهَدُ

«**لَهُ المُلْكُ وَالحَمْدُ المُحِيطُ بمُلْكِهِ**» له ـ تبارك وتعالى ـ المُلك، ومُلكُه لجميع المخلوقات ﴿**لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا**﴾ [الزُّخْرُفِ: ٨٥]، له ملكُ كلِّ شيء ـ تبارك وتعالى ـ، له المُلك والحمد، إذا كان وحدَه ـ تبارك وتعالى ـ متفرِّدًا بالمُلك، فهو المستَحقُّ وحده أن يُفرَد بالحمد؛ لأنَّ المُلكَ كلَّه لله فالحمدُ كلُّه له ـ سبحانه وتعالى ـ.

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص: ٢٢٤).

(٢) مسلم (٢٥٧٧).

قال ابنُ القيِّم: «والمقصود أنَّ المُلك والحمدَ في حقِّه مُتلازمان، فكلُّ ما شَمله ملكُه وقُدرتُه شمل حمده، فهو محمودٌ في ملكِه، وله المُلك والقُدرة مع حمده، فكما يستَحيلُ خروج شيءٍ من الموجودات عن مُلكِه وقُدرتِه، يستَحيلُ خروجها عن حمدِه وحكمتِه؛ ولهذا يحمد سُبحانه نفسَه عند خلقِه وأمرِه لينبِّه عبادَه على أنَّ مصدَرَ خلقِه وأمرِه عن حمدِه؛ فهو محمودٌ على كلِّ ما خلَقَه وأمَرَ به حمدَ شُكرٍ وعبوديَّةٍ، وحمدَ ثناءٍ ومدحٍ»(١).

«**وَحِكْمَتُهُ العُظْمَى بِهَا الخَلْقُ تَشْهَدُ**» أي: الخلق يشهد بأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيمٌ في خلقه، حكيمٌ في تدبيره، لا يفعلُ شيئًا إلَّا عن حكمة؛ فأفعالُه كلُّها صادرةٌ عن حكمةٍ، وهو ـ جلَّ وعلا ـ منزَّهٌ عن العَبث واللَّهو والباطل واللَّعب؛ تنزَّه وتقدَّس عن ذلك كلِّه ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾**﴾ [سورة القيامة]، فالله ـ جلَّ وعلا ـ منزَّهٌ عن ذلك ، فأفعالُه كلُّها عن حكمة، والخلقُ كلُّهم يشهدون لله بذلك إلَّا مَن فسَدَ وضلَّ عن سواء السَّبيل.

والحكمةُ تتضمَّنُ كمالَ علمِه وخبرتِه، وأنَّه أمَر ونهى وخلَقَ وقَدَّر لما له في ذلك من الحِكم والغَايات الحميدة الَّتي يستحقُّ عليها كمالَ الحمدِ، فلا يفعلُ خلافَ موجبِ حمدِه وحكمتِه، ولا يأْمُر بخلافِ موجبِ حمدِه وحكمتِه.

١٦ـ وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى   كَمَا قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالحَقِّ أَحْمَدُ

«**وَنَشْهَدُ**» أي: نقِرُّ ونؤمن.

«**أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى**» و«**الدُّجى**»: الظُّلمة، والمراد إثبات نزول الله ـ تبارك

(١) «طريق الهجرتين» (ص: ٢١٩).

وتعالى ـ في ثُلث اللَّيل الآخر، «**كَمَا قَالَهُ المَبْعُوثُ بِالحَقِّ أَحْمَدُ**» يشير إلى الحديث الَّذي تواتر نقله عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»(١)؛ فالنُّزول حقٌّ ثابتٌ لله، وقد اتَّفق السَّلفُ على أنَّ «النُّزول» فعلٌ يفعلُه الرَّبُّ ـ تبارك وتعالى ـ كما يليقُ بجَلاله، ولا تُعلَم كيفيَّتُه، فإنَّ الله ليس كمثله شيءٌ لا في ذاتِه ولا في صفاتِه ولا في أفعالِه، فإذا قال قائلٌ: كيفَ ينزلُ ربُّنا إلى السَّماء الدُّنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلمُ كيفيَّةَ ذاته، قيل له: ونحنُ لا نعلمُ كيفيَّةَ نزوله؛ إذ العلمُ بكيفيَّة الصِّفةِ يستلزمُ العلمَ بكيفيَّة الموصوفِ.

١٧ـ وَنَشْهَـدُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ رُسْلَـهُ بِآيَاتِـهِ لِلْخَلْـقِ تَهْـدِي وَتُرْشِـدُ(٢)

«**وَنَشْهَدُ**» أي: ونقرُّ أيضًا ونؤمن.

«**أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ رُسْلَهُ**» أي: بعثَ رسُلَه الكرام مبشِّرين ومنذِرين، أرسلَهُم «**بِآيَاتِهِ**» والآية: هي العلامةُ الظَّاهرة والحجَّةُ البيِّنةُ الدَّالَّةُ على الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وهيَ نوعان: آياتٌ متلوَّةٌ؛ وإليها يشير النَّاظمُ، وآياتٌ مشاهَدَةٌ مرئيَّةٌ وهي مخلوقاتُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

«**بِآيَاتِهِ**» أي: بوحيِه المنزَّل ﴿**وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾**﴾ [سُورَةُ العَنكبُوتِ]، فنؤمنُ بذلك، ونؤمنُ أنَّ الرُّسُل بلَّغوا البلاغَ المبين، وبلَّغوا وحيَ الله ـ تبارك وتعالى ـ وتنزيلَه إلى النَّاس كما أمرَهُم الله ـ تبارك وتعالى ـ.

---

(١) البخاري (١١٤٥).

(٢) في نسخة (ص): بِآيَاتِهِ لِلْخَلْقِ جلّ الموحد.

«لِلخَلْقِ»؛ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، إقامةً للحجَّة، وإزالةً للمَعذرةِ، وإبانةً للسَّبيل.

ثمَّ بيَّنَ مهمَّةَ الرُّسُل فقال: «تَهْدِي وَتُرْشِدُ»؛ والمراد بالهداية: أي هداية الدَّلالة والإرشاد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشورى] أي: تدلُّ وترشد؛ أمَّا هداية التَّوفيق فهذه ليسَت إلَّا لله ـ تبارك وتعالى ـ ربِّ العالمين كما قال الله ـ سُبحانه وتعالى ـ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

١٨ـ وَفَاضَلَ بَيْنَ الرُّسْلِ وَالخَلْقِ كُلِّهِمْ   بِحِكْمَتِـهِ جَـلَّ العَظِـيمُ الْــمُوَحَّدُ [1]

«وَفَاضَلَ بَيْنَ الرُّسْلِ»؛ أي: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ مِن حكمتِه ـ ولا يفعلُ إلَّا عن حكمة ـ فاضَلَ بين الرُّسل؛ أي: لم يجعلهم في الفَضل على رتبةٍ واحدةٍ بل فضَّل بعضَهم على بعض، كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]؛ وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، قال الشَّيخ السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية الثَّانية: «يخبر تعالى أنَّه فضَّل بعضَ الرُّسل على بعض بما خصَّهُم من بين سائر النَّاس بإيحائه وإرسالهم إلى النَّاس، ودعائهم الخلقَ إلى الله، ثمَّ فضَّل بعضَهُم على بعض بما أودَعَ فيهم من الأوصاف الحميدةِ والأفعال السَّديدةِ والنَّفع العامِّ، فمنهُم مَن كلَّمه الله كمُوسى بن عِمران خصَّه بالكلام، ومنهم مَن رفعَه على سائرهم درجاتٍ كنبيِّنا ﷺ الَّذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرَّق في غيره،

(١) في نسخة (ص): بحكمته العظمى تعالى المفرد.

وجمع اللهُ له منَ المناقب ما فاقَ به الأوَّلين والآخِرين»[1].

«**وَالخَلْقِ كُلِّهِمْ**» أي: وفاضَل بين الخلق كلِّهم، فالتَّفاضُلُ ثابتٌ بين الرُّسل، وأيضًا بين الخلق ﴿**انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ [الإسراء: ٢١]، وقال تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾ [الزخرف: ٣٢]، فالمفاضلة ثابتةٌ بين الخلق فليسُوا على رتبةٍ واحدةٍ، ولهذا تفاضَلت المنازلُ والدَّرجاتُ يوم القيامة.

«**بِحِكْمَتِهِ**» أي: أنَّ هذا التَّفضيل صادرٌ عن حكمة، فالله ـ جلَّ وعلا ـ منزَّهٌ أن يصدُرَ عنه شيءٌ عن غير حكمة.

«**جَلَّ**»؛ أي: تنزَّه وتقدَّس ـ سبحانه وتعالى ـ.

«**العَظِيمُ**»؛ وهو اسمٌ من أسمائه ـ تبارك وتعالى ـ، فيه ثبوتُ العَظمة له في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه.

«**المُوَحَّدُ**» أي: الَّذي يجب أن يُفرد بالتَّوحيد وأن يُخلص له الدِّين، وأن لا يُجعل معه شريك.

ثمَّ لَمَّا ذكر المفاضلة بينَ الرُّسل وبينَ الخلْقِ بيَّنَ أنَّ أفضل الخلق درجةً وأعلاهم مكانةً سيِّدُ ولدِ آدم نبيُّنا محمَّد ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ قال:

١٩ـ فَأَفْضَلُ[2] خَلْقِ اللهِ فِي الأَرْضِ وَالسَّمَا   نَبِيُّ الهُدَى وَالعَالَمِينَ مُحَمَّدُ

فهو أفضل الخلق أجمعين وسيِّدُ ولد آدم صلواتُ الله وسلامُه وبركاتُه عليه.

قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة: «ومحمَّد ﷺ أفضلُ الرُّسل باتِّفاق المسلمين،

(١) «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص: ١٠٩).

(٢) في نسخة (ص): وأفضل.

لكن وقع نزاعٌ هل هو أفضل مِن جُملتهم؟ قطعَ جماعةٌ بأنَّه أفضل كما أنَّ صدِّيقَه أبا بكر وُزِنَ إيمانُه بإيمانِ جميع الأمَّة فرجَحَ»(١).

«**نَبِيُّ الهُدَى**»؛ أي: الَّذي بعثه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالحقِّ والهدى.

«**والعالمين**» أي: الَّذي بعثه الله ـ سبحانه وتعالى ـ رحمةً للعالمين ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾**﴾ [الأنبياء].

٢٠ـ وَخَصَّ لَهُ الرَّحْمٰنُ أَصْحَابَهُ الأُلَى أَقَامُوا الهُدَى وَالدِّينَ حَقًّا وَمَهَّدُوا

«**وَخَصَّ لَهُ الرَّحْمٰنُ أَصْحَابَهُ الأُلَى**» أي: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ اصطفى له صحبًا كِرامًا قاموا بنُصرته ومُؤازرته ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ، وكانوا خيرَ النَّاس وأفضلَ العالمين وأفضل أُمَم النَّبيِّين، لا كانَ ولا يكونُ مثلُهم بعد النَّبيِّين، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]، وجاء في الحديث عنه صلوات الله وسلامُه عليه: «**أَلَا إِنَّكُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله**»(٢).

«**الأُلَى**» بمعنى الَّذين، كقَولك: هُم الأُلى قالوا كذا؛ أي الَّذين.

«**أَقَامُوا الهُدَى وَالدِّينَ حَقًّا**» بجهودٍ عظيمة وأعمالٍ متوافرة قدَّمها هؤلاء الصَّحب نشرًا وإبلاغًا لدين الله ـ تبارك وتعالى ـ، فكانوا أحقَّ النَّاس وأولاهُم وأحظاهُم نصيبًا بدعوة نبيِّنا عليه الصَّلاة والسَّلام الَّتي قال فيها: «**نَضَّرَ الله امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»(٣).

---

(١) «المستدرك على مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيميَّة» (١/ ١١٨).

(٢) «مسند الإمام أحمد» (٢٠٠٢٩).

(٣) «جامع التِّرمذي» (٢٦٥٨)، وصحَّحه الألباني.

«**وَمَهَّدُوا**»؛ أي: هيَّؤوا ووطَّؤوا، وتمهيد الطَّريق: توطئتُه، وهُم الَّذين بدؤوا على إثر النَّبيِّ ﷺ بتوطئة الطَّريق ـ طريق الإسلام ـ لأمَّة الإسلام؛ فجزاهم عن أمَّة الإسلام خير الجزاء، رضيَ الله عنهُم وأرضاهُم.

ثمَّ بيَّن الواجبَ تجاهَ الصَّحابة فقال:

٢١ـ فَحُبُّ جَمِيعِ الآلِ وَالصَّحْبِ عِنْدَنَا   مَعَاشِرَ أَهْلِ الحَقِّ فَرْضٌ مُؤَكَّدُ

أي: حبُّ هؤلاء الصَّحب أجمعين، وحبُّ آل بيت النَّبيِّ ﷺ دينٌ وقربةٌ يتقرَّب بها المسلمون إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وبغضُهم نفاقٌ وطغيان، مع سلامة الصُّدور تجاههم، وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القُرآن: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾**﴾ [سُورَةُ الحَشْرِ].

٢٢ـ وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ الحَقِّ أَنَّ كَلَامَهُ   هُوَ اللَّفْظُ وَالمَعْنَى جَمِيعًا مُجَوَّدُ[(١)]

«**وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ الحَقِّ**» أي: وممَّا يدينُ به أهلُ الحقِّ ويعتَقدونه ويؤمنونَ به.

«**أَنَّ كَلَامَهُ**» أي: الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإضافة الكلام إليه ـ عزَّ وجلَّ ـ إضافةُ وصفٍ.

«**هُوَ اللَّفْظُ وَالمَعْنَى**» فالكلامُ المضافُ إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو اللَّفظ والمعنى، ليس الكلامُ الألفاظَ دون المعاني، ولا المعاني دونَ الألفاظ؛ وهذا هو «الصَّواب الَّذي عليه سلفُ الأمَّة كالإمام أحمد، والبخاري صاحب «الصَّحيح» في كتاب «خلق أفعال العباد» وغيره، وسائر الأئمَّة قبلهم وبعدهم أتباع النُّصوص

---

(١) في نسخة (ص):

وأنَّ كلام الله حقٌّ وأنَّه   هو المحفوظُ جميعًا مجوَّد.

الثَّابتة، وإجماع سلف الأمَّة، وهو أنَّ القُرآن جميعَه كلامُ الله حروفه ومعانيه، ليس شيءٌ من ذلك كلامًا لغيره، ولكن أنزلَه على رسوله، وليس القُرآن اسمًا لمجرَّد المعنى، ولا لمجرَّد الحرف بل لمجموعها، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط، ولا المعاني فقط، كما أنَّ الإنسانَ المتكلِّمَ النَّاطقَ ليس هو مجرَّد الرُّوح، ولا مجرَّد الجسد؛ بل مجموعها»(١).

«**مُجَوَّدُ**» أي: محكمٌ ومتقنٌ بألفاظِه ومعانيه ﴿ **لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴿٤٢﴾ ﴾ [سُورَةُ فُصِّلَتْ].

٢٣ـ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَأَنَّى لِخَلْقِهِ بِقَوْلٍ كَقَوْلِ الله إِذْ هُوَ أَمْجَدُ

«**وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ**» أي: أنَّ كلامَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صفةٌ من صفاتِه، وإضافتُه إليه إضافة وصفٍ وليست إضافةَ خلقٍ، فالقُرآن كلام الله ـ جلَّ وعلا ـ ليس بمخلوق.

ثمَّ ذكر على ذلكم شاهدًا من الشَّواهد وبرهانًا من البراهين، فقال رَحِمَهُ اللهُ: «**وَأَنَّى لِخَلْقِهِ بِقَوْلٍ كَقَوْلِ الله**» أي: أنَّ المخلوقين مهما أوتوا من الفَصاحة والبلاغة والبَيان فأنَّى لهم بقولٍ كقَول الله!! وقد تحدَّى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الجنَّ والإنسَ لو اجتمَعوا جميعًا أن يأتوا بسورة مِن مثلِه أو أن يأتوا بمثله، كما قال الله تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴿٨٨﴾ ﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ]، وقال تعالى: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴿١٣﴾ ﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟**

---

(١) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة (١٢/ ٢٤٣ـ٢٤٤).

شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

«**إِذْ هُوَ أَمْجَدُ**» أي: قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمجد، والمجد: هو السَّعة والكمال والعَظمة، والله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفَ القرآنَ بالمجد؛ قال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾**﴾ [سُورَةُ البُرُوجِ]، فوصف القرآنَ بذلك، والمجد معناه السَّعة، والسَّعة هُنا سَعَة أوصافِ القُرآن الكاملة العَظيمة الجليلة؛ فالقُرآن أمجد: أي أعظم وأجلُّ وأكبَرُ من أن يأتي أحدٌ منَ البَشر بمثله.

٢٤ـ وَنَشْهَدُ أَنَّ الخَيْرَ وَالشَّرَّ كُلَّهُ بِتَقْدِيرِهِ وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَيَجْهَدُ

«**وَنَشْهَدُ**» أي: نؤمن ونقِرُّ.

«**أَنَّ الخَيْرَ وَالشَّرَّ كُلَّهُ بِتَقْدِيرِهِ**» فمِن عقيدةِ أهل السُّنَّة والجماعةِ الإيمان بالقَدر خيره وشرِّه من الله تعالى، وفي حديث جبريل المشهور ذكر أصول الإيمان في قوله: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١)، فالقَدر حلوُه ومرُّه، خيرُه وشرُّه، كلُّه منَ الله ـ تبارك وتعالى ـ، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ خالقُ كلِّ شيء، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾**﴾ [سُورَةُ القَمَرِ]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾**﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾**﴾ [سُورَةُ الأَعْلَىٰ].

قال ابنُ القيِّم في «الفوائد»(٢): «أساسُ كلِّ خير أن تعلمَ أنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فتيقَّن حينئذٍ أنَّ الحسناتِ من نعمه، فتشكره عليها، وتتضرَّع

---

(١) مسلم (٨).

(٢) (ص: ١٨١).

إليه أن لا يقطعَها عنك، وأنَّ السَّيِّئات مِن خذلانه وعقوبتِه، فتبتَهل إليه أن يحُولَ بينَك وبينَها، ولا يكِلَك في فعلِ الحسنات وتركِ السَّيِّئات إلى نفسِك».

«**وَالعَبْدُ يَسْعَى وَيَجْهَدُ**» فإيمانُ العبد بأنَّ الأمور كلَّها بقدر الله لا يعني أن تعطَّل الأعمالُ، وتُهمل الأسبابُ، وأن يُتوقَّف عن بذل الجهدِ في الطَّاعات والعبادات؛ بل مع الإيمان بالقَدر واعتقاد أنَّ الأمور كلَّها بتَقدير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فالواجبُ على العبد أن يسعى ويجهد، ومعنى يجهد: أي يجدُّ ويجتَهد في بذلِ الأسباب في الطَّاعات والعبادات المقرِّبة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ففي هذا البيتِ جمعَ بين أصلين عظيمين، وأساسَيْن متينَيْن في باب الإيمان بالقَدر ألا وهما: الإيمانُ بأنَّ الأمور كلَّها بأقدار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وبذلُ الأسباب.

وقد جمع النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام بينهما في قوله: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[1]، وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله**»[2].

٢٥ـ وَإِيمَانُنَا قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ مِنَ الخَيْرِ وَالطَّاعَاتِ فِيهَا نُقَيِّدُ[3]

«**وَإِيمَانُنَا قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ**» هذا هو حدُّ الإيمان وتفسيرُه الجامعُ لما يحتَويه الإيمانُ ويتضمَّنه، فالإيمانُ الَّذي خلقنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لتحقيقه وأوجَدَنا للقيام به قولٌ وفعلٌ ونيَّةٌ، أي: مكوَّنٌ من هذه الأركان الثَّلاثة الَّتي عليها قيام الإيمان، فهو قولٌ وفعلٌ ونيَّة؛ ليس الإيمان قولٌ بلا عمل، ولا أيضًا عملٌ بلا نيَّة، بل الإيمان قيامه على هذه الثَّلاث: القول والعمل والنِّيَّة.

(١) البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) مسلم (٢٦٦٤).

(٣) في نسخة (ص): فيه تقيد.

قال الأوزاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «لا يستقيمُ الإيمانُ إلَّا بالقَول، ولا يستقيمُ الإيمانُ والقولُ إلَّا بالعمل، ولا يستقيمُ الإيمانُ والقولُ والعملُ إلَّا بنيَّة موافقة للسُّنَّة، وكان مَن مضى من سَلفِنا لا يفرِّقون بين الإيمان والعمل، والعملُ من الإيمان، والإيمانُ من العمل، وإنَّما الإيمانُ اسمٌ يجمع هذه الأديان اسمُها، ويصدِّقه العملُ، فمَن آمنَ بلسانه وعرفَ بقلبِه، وصدَّق بعملِه فتلك العُروة الوثقَى الَّتي لا انفصامَ لها، ومَن قالَ بلسانِه، ولم يعرفْ بقلبِه، ولم يصدِّقه بعملِه، لم يُقبَل منه، وكان في الآخرة من الخاسرين».

وقال سفيان الثَّوري رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «كان الفقهاءُ يقولون: لا يستقيمُ قولٌ إلَّا بعمل، ولا يستقيمُ قولٌ وعملٌ إلَّا بنيَّة، ولا يستقيمُ قولٌ وعملٌ ونيَّةٌ إلَّا بمُوافقة السُّنَّة».

وقال الآجرِّي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الشَّريعة»[(٣)] في «باب القول بأنَّ الإيمان تصديق بالقلب وإقرارٌ باللِّسان وعملٌ بالجوارح، لا يكون مؤمنًا إلَّا بأن تجتمعَ فيه هذه الخصال الثَّلاث»: «اعلموا ـ رحمنا الله وإيَّاكم ـ أنَّ الَّذي عليه علماءُ المسلمين أنَّ الإيمانَ واجبٌ على جميع الخلق، وهو تصديقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللِّسان، وعملٌ بالجوارح، ثمَّ اعلمُوا أنَّه لا تجزئ المعرفةُ بالقَلب والتَّصديق إلَّا أن يكونَ معه الإيمانُ باللِّسان نطقًا، ولا تجزئ معرفةٌ بالقلب ونطقٌ باللِّسان حتَّى يكونَ عملٌ بالجوارح، فإذا كمُلت فيه هذه الثَّلاث الخصال كان مؤمنًا، دلَّ على ذلك القُرآن والسُّنَّة وقولُ علماء المسلمين».

---

(١) «الإبانة الكبرى» لابن بطَّة (٢/ ٨٠٧).

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطَّة (١/ ٣٣٣، ٢/ ٨٠٧).

(٣) (١/ ٢٧٤).

وقال شيخ الإسلام: «قال حنبل: «حدَّثنا الحميدي قال: وأُخبرتُ أنَّ ناسًا يقولون: مَن أقرَّ بالصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجِّ ولم يفعَل مِن ذلك شيئًا حتَّى يموتَ، ويصلِّي مستَدبر القِبلة حتَّى يموت؛ فهو مؤمنٌ ما لم يكن جاحدًا إذا عُلم أنَّ تركَه ذلك فيه إيمانُه إذا كان مقرًّا بالفرائض واستقبال القبلةِ؛ فقلتُ: هذا الكُفر الصُّراحُ وخلافَ كتاب الله وسنَّةِ رسولِه وعلماءِ المسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية، وقال حنبل: «سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: مَن قال هذا فقَد كَفَر بالله وردَّ على أمرِه، وعلى الرَّسولِ ما جاءَ به عن الله»»[1].

«مِنَ الخَيْرِ» الجارُّ والمجرور هنا متعلِّقٌ بما سبق، أي إيماننا هو أقوال الخير وأعمال الخير والنِّيَّات الخيِّرات الصَّالحات؛ هذا هو إيمانُنا قولٌ وفعلٌ ونيَّةٌ من الخير.

«**وَالطَّاعَاتِ فِيهَا نُقَيِّدُ**» الضَّمير في قوله «**فيها**» عائد إلى النِّيَّة، بمعنى أنَّ كلَّ طاعةٍ لتكون متقبَّلةً مرضيَّةً عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ مشكورةً عنده؛ لابدَّ أن تقيَّد بالنِّيَّة الصَّالحة بأن يُقصد بفعل الطَّاعة التَّقرُّبُ إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما قال ـ جلَّ وعلا: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [الإسراء].

٢٦ـ وَيَزْدَادُ بِالطَّاعَاتِ مَعْ تَرْكِ مَا نَهَى[2] **وَيَنْقُصُ بِالعِصْيَانِ جَزْمًا**[3] **وَيَفْسُدُ**

«**وَيَزْدَادُ**» أي الإيمان «**بِالطَّاعَاتِ**»، فكلَّما زاد العبد من الطَّاعة زاد إيمانه؛ لأنَّ

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٠٩).

(٢) في نسخة (ص): مع ترك منكر.

(٣) في نسخة (م): حقا.

الطَّاعات إيمان، وزيادتها زيادة إيمان، ونقصانها نقصان إيمان، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»(١)، فالإيمانُ شعبٌ كثيرةٌ وخصالٌ عديدةٌ، وكلَّما ازداد العبدُ من خصالِ الإيمانِ زاد إيمانُه بذلك، «**مَعْ تَرْكِ مَا نَهَى**» فكما أنَّ الإيمانَ يزيد بالطَّاعة فإنَّه كذلك يزيد بتَرك المعاصي، و«**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(٢)، فإذا تجنَّبَ العبدُ المعاصي تقرُّبًا إلى الله وطلبًا لِرضاه وخوفًا من عقوبتِه ـ سبحانه وتعالى ـ فهذا التَّرك بحدِّ ذاته يُعدُّ إيمانًا، ويزداد الإيمانُ به، وممَّا يدلُّ لذلك الحديثَ المخرَّج في «الصَّحيحين» عن أبي هُريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(٣) بمعنى أنَّ فعله لهذه الأشياء نقصٌ في إيمانه، ومفهومُ المخالفة لذلك: أنَّ تركَه لهذه الأشياءِ تقرُّبًا إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وطلبًا لرضاه زيادةٌ في إيمانه.

فإذًا؛ الإيمانُ يزيد بفعل الطَّاعات، ويزيد أيضًا بتَرك المعاصي تقرُّبًا بهذا التَّرك إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فإنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ يُتقرَّب إليه بفعل الأوامر، ويُتقرَّب إليه أيضًا بترك النَّواهي.

«**وَيَنْقُصُ بِالعِصْيَانِ جَزْمًا**» أي: يقينًا وحقًّا لا ريبَ في ذلك، فالمعاصي تُنقصُ الإيمانَ وتُضعِفُه، وكما أنَّ الإيمان يزيد بطاعة الله فإنَّه ينقصُ بمعاصيه، قد

---

(١) مسلم (٣٥).

(٢) «جامع التِّرمذي» (٢٣١٧)، وصحَّحه الألباني.

(٣) البخاري (٢٤٧٥، ٥٥٧٨، وغيرهما)، ومسلم (٥٧).

جاء عن عُمَير بن حَبيب الخَطْمي قال: «الإيمانُ يزيدُ وينقص؛ قيل: ما زيادتُه ونقصانُه؟ قال: «إذا ذكرنا الله عزَّ وجلَّ، وحمدناه وسبَّحناه فتلك زيادتُه، وإذا أغفلنا وضَيَّعنا وأسَأنا فذَاك نقصانُه»[(١)].

«**وَيَفْسُدُ**» أي: إذا زاد الكيلُ من المعاصي فسَدَ الإيمانُ.

ففي هذا البيت بيانُ أنَّ الإيمان يزيد وينقص، ويقوى ويضعُف، وأنَّ لزيادته أسبابًا ولنُقصانه أسبابًا ألمح إليها رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا، وبيَّنها بيانًا وافيًا، وفصَّلها تفصيلًا نافعًا في كتابه العظيم «التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان».

٢٧ـ نُقِرُّ بِأَحْوَالِ القِيَامَةِ كُلِّهَا وَمَا اشْتَمَلَتْهُ الدَّارُ حَقًّا وَنَشْهَدُ

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا البيت أصلًا من أصولِ الإيمان، وركنًا من أركانه؛ ألا وهو الإيمان باليوم الآخر.

«**نُقِرُّ بِأَحْوَالِ القِيَامَةِ كُلِّهَا**» وهذه حقيقةُ الإيمان باليوم الآخر: أن نقرَّ بأحوال القيامة كلِّها، أي: نؤمنُ بكلِّ ما يكونُ بعد الموتِ من أحوال وتفاصيل، وأهوالٍ وأمور بدءًا من فتنة القَبر، فعذابه ونعيمه، ثمَّ البعث، والنُّشور، والحشر، والجزاء، والحساب، والدَّواوين، والصِّراط، والميزان، والجنَّة، والنَّار، وجميع التَّفاصيل الواردة في الكتاب والسُّنَّة المتعلِّقة بذلك اليوم.

«**وَمَا اشْتَمَلَتْهُ الدَّارُ حَقًّا**» الدَّار: أي الدَّار الآخرة، نؤمنُ بكلِّ ما اشتملت عليه من تفاصيل ورَدَ بيانُها في كتاب الله ـ جلَّ وعلا ـ، وسنَّةِ نبيِّه صلواتُ الله وسلامُه وبركاتُه عليه.

---

(١) «السُّنَّة» للخلَّال (٤/ ٤٧).

«وَنَشْهَدُ» شهادةَ إقرار وإيقان، كما قال الله تعالى في وصفِ أهل الإيمان ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

٢٨ـ تَفَكَّرْ بِآثَارِ العَظِيمِ وَمَا حَوَتْ　　　مَمَالِكُهُ العُظْمَى لَعَلَّكَ تَرْشُدُ

«**تَفَكَّرْ بِآثَارِ العَظِيمِ**» أي: تأمَّل في آياتِ الله العظيمة، ومخلوقاتِه الباهرة الدَّالةِ على كمالِ خالقِها، وعظمةِ مبدعِها ـ سبحانه وتعالى ـ، فإنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ حثَّ عبادَه على التَّفكُّر في آياته العِظام، ومخلوقاتِه الجِسام لما في هذَا التَّفكُّر والتَّأمُّل والتَّدبُّر في هذه المخلوقات من أثرٍ عظيم على العَبد، ونفعُ هذا التَّفكُّر للمُؤمن زيادةٌ في الإيمان، ولغير المؤمن بوَّابةٌ للدُّخول في هذا الدِّين العظيم، وكم من إنسانٍ كان سبب إيمانه تفكُّرًا صحيحًا في آيةٍ من آيات الله، ومخلوقٍ من مخلوقاتِ الله العظيمة.

«**وَمَا حَوَتْ مَمَالِكُهُ العُظْمَى**» من سماواتٍ وأرض ونحو ذلكم منَ المخلوقات العِظام الكبار، تأمَّل ما حوَته من آياتٍ باهراتٍ، وحججٍ ساطعاتٍ على عظمةِ مُبدِعِها، وكمالِ خالقِها جلَّ شأنه.

«**لَعَلَّكَ تَرْشُدُ**» أي: تنال الرَّشادَ، وتكونُ من الرَّاشدين بسبَب هذا التَّفكُّر؛ فإنَّ هذا التَّأمُّل الَّذي دعا اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ عبادَه إليه في مواضعَ عديدةٍ من كتابه يرشدُ العبدَ إلى أبواب الهدايةِ، وطريقِ الفلاح، وسَبيل السَّعادة في الدُّنيا والآخرة، قال ابنُ القيِّم في «مفتاح دار السَّعادة»[1]: «وأحسنُ ما أُنفِقت فيه الأنفاسُ التَّفكُّرُ في آياتِ الله، وعجائب صنعِه، والانتقالِ منها إلى تعلُّق القَلب والهمَّة به دونَ شيءٍ من مخلوقاته».

---

(١) (١/ ٢١٤).

٢٩ـ أَلَمْ تَرَ هٰذَا اللَّيْلَ إِذْ جاءَ مُظْلِمًا[(١)] فَأَعْقَبَهُ جَيْشٌ مِنَ الصُّبْحِ يَطْرُدُ

«أَلَمْ تَرَ» أيُّها المؤمن «هٰذَا اللَّيْلَ إِذْ جاءَ مُظْلِمًا» يغطِّي بظُلمتِه النَّهار «فَأَعْقَبَهُ جَيْشٌ مِنَ الصُّبْحِ يَطْرُدُ» أي: فتبعَه جيشٌ من الصُّبح أي: النَّهار والضِّياء والنُّور طاردًا تلك الظُّلمة، وفي هذا آيةٌ من آيات الله الباهرة الدَّالَّة على عظمةِ الخالق وكمالِ المبدع ـ سبحانه وتعالى ـ الموجبَةِ لذكرِه، وشكرِه، وحسنِ عبادتِه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس].

قال ابنُ سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذه الآياتِ تنبيهٌ إلى أنَّ العبدَ ينبغي له أن يتدبَّر نِعَم الله عليه، ويستَبصر فيها، ويقيسُها بحال عدمِها، فإنَّه إذا وازنَ بين حالةِ وجودِها، وبين حالةِ عدمِها، تنبَّه عقلُه لموضِع المنَّة، بخلافِ مَن جرى مع العَوائد، ورأى أنَّ هذا أمرٌ لم يَزل مستمرًّا، ولا يزال، وعميَ قلبُه عن الثَّناء على الله بنعمِه، ورؤية افتقاره إليها في كلِّ وقت، فإنَّ هذا لا يُحدِثُ له فكرةَ شُكرٍ ولا ذِكرٍ»[(٢)].

---

(١) في نسخة (ص): أسدى ظلامه.

(٢) «تفسير السَّعدي» (ص٦٢٣).

٣٠ـ تَأَمَّلْ بِأَرْجَاءِ السَّمَاءِ جَمِيعِهَا   كَوَاكِبُهَا وَقَّادَةٌ تَتَرَدَّدُ

«تَأَمَّلْ بِأَرْجَاءِ السَّمَاءِ جَمِيعِهَا» أي: أطرافها وجوانبها وما حوَته السَّماوات من آيات، وهذا تأمُّل في الآفاق، في هذه السَّماء ونواحيها الَّتي رفعَها الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وجعلها للأرض كالغطاء؛ تغطِّي الأرضَ من جميع جهاتها، وتحيط بها من جميع أطرافها.

«كَوَاكِبُهَا» أي: النُّجوم الَّتي جعلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ زينةً للسَّماء، وعلاماتٍ يُهتَدى بها، ورجومًا للشَّياطين «وَقَّادَةٌ» أي: مضيئةٌ، وهي آيةٌ من آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فإنَّه لولا النُّجوم لما كان للسَّماء هذا المنظَر البهيّ، والهيئة العَجيبة، وهذا ممَّا يدعو النَّاظرين إلى التَّأمُّل فيها، والنَّظر في معانيها، والاستِدلال بها على كمالِ باريها، وعظمةِ خالقِها.

«تَتَرَدَّدُ» والتَّردُّد هو التَّحرُّك، متحرِّكةٌ بأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ، متنقِّلةٌ من موضع إلى موضع بأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتسخيرِه.

٣١ـ أَلَيْسَ لِهَذَا مُحدِثٌ مُتَصَرِّفٌ   حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَاحِدٌ مُتَفَرِّدُ

«أَلَيْسَ لِهَذَا مُحدِثٌ» أي: هذا الخلق العجيبُ، والكونُ العظيم، والآياتُ الباهرة؛ أليس له مبدعٌ خالقٌ؟!! أيمكنُ أن يقول عاقلٌ أنَّ هذا الكونَ وُجِد هكذا فلتَةً أو وقعَ صدفةً بلا خالق ولا موجِد؟!

«مُتَصَرِّفٌ» أي: مدبِّر له، لا يتحرَّكُ شيءٌ منه إلَّا بتصريفِه وتدبيرِه.

«حَكِيمٌ» لم يخلق هذا الخلقَ بهذا الوصفِ العظيم، وهذا الجمالِ البديع، والإحكامِ المتقَنِ عبثًا، ولم يوجده باطلًا، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ

﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [سُورَةُ صٓ]، وفي هذا أنَّ خلقَه السَّماواتِ والأرض عن حكمة، لم يخلقْهُما باطلًا، أي: عبثًا ولعبًا من غير فائدةٍ ولا مصلحةٍ «إذا تأمَّلَها صحيحُ التَّأمُّل والنَّظر وجدَها مؤسَّسَةً على غاية الحكمةِ مغشَّاةً بالحكمة، فقَرأ سُطورَ الحكمةِ على صفحاتِها، وينادي عليها هذا صُنع العَليم الحكيم، وتقديرُ العَزيز العَليم»[1].

«عَلِيمٌ» أي: وخلقُه لهذه المخلوقات، وإيجادُه لها دليلٌ على علمِه بها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [سُورَةُ المُلْكِ]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [سُورَةُ الطَّلَاقِ].

«وَاحِدٌ مُتَفَرِّدٌ» وأيضًا هذا التَّأمُّل في هذه المخلوقات الهادي للإيمان بوجود خالقٍ لها ومبدع داعٍ للإيمان بوحدانيَّته وأنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ واحد متفرِّد، فكما أنَّه تفرَّد بخلق هذا الكونِ وإيجادِه لا شريكَ له في شيءٍ من ذلك ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فَاطِر: ٣]، فيجبُ أن يُفرَد وحدَه بالطَّاعة، ويُخَصَّ ـ جلَّ وعلا ـ وحدَه بالعبادة، فلا يجعَل معه شريكًا.

فهي شواهد «رُقمت سطُورُها على صفحاتِ المخلوقاتِ يقرؤها كلُّ عاقلٍ وغيرِ كاتبٍ؛ نُصبَت شاهدةً لله بالوحدانيَّة والرُّبوبيَّة، والعلم والحكمة، واللُّطف والخِبرة

تأمَّل سُطور الكائناتِ فإنَّها ... مِن الملأ الأعلى إليكَ رسائل
وقد خطَّ فيها لو تأمَّلت خطَّها ... ألا كلُّ شيءٍ ما خَلا الله باطل»[2]

---

(١) «الصَّواعق المرسلة» (٤/ ١٥٦٧).

(٢) «مفتاح دار السَّعادة» (٢/ ٦٥).

٣٢ـ بَلَى وَالَّذِي بِالحقِّ أَتْقَنَ صُنْعَهَا وَأَوْدَعَهَـــا الأَسْرَارَ لله تَـــشْهَدُ[1]

«بَلَى» جوابٌ، وهو يأتي عقبَ النَّفي لإثبات المنفيِّ؛ أي: بلى إنَّ لهذا الخلقِ مُحدِثًا متصرِّفًا حكيمًا عليمًا واحدًا متفرِّدًا، وأقسمَ على ذلك بالله العظيم «**بَلَى وَالَّذِي بِالحقِّ أَتْقَنَ صُنْعَهَا**»؛ أي: أوجَدَها بإتقان وإحكام ﴿**مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ٣**﴾ [سُورَةُ المُلْكِ]، فهي مخلوقاتٌ متقَنَةٌ ومُحكَمَةٌ تدلُّ على عظَمَة خالقِها وكمالِ مُبدِعِها ـ سبحانه وتعالى ـ.

«**وَأَوْدَعَهَا الأَسْرَارَ**» أي: أودع هذه المخلوقاتِ أسرارًا تدلُّ على عظمة الخالق وتشهدُ بذلك، فهي آياتٌ بثَّها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ونشرَها في هذا الكون تدلُّ عليه.

فوا عجبًا كيف يُعصَى الإلهُ أم كيــفَ يجحَــدُه الجاحِــدُ
ولله في كُــــلِّ تحريكَـــــةٍ وفي كــلِّ تــسكينَةٍ أبــدًا شــاهدُ
وفي كُـــلِّ شيءٍ لـــه آيـــةٌ تـــدلُّ عـــلى أنَّـــه واحِـــدُ

٣٣ـ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِـمَنْ كَانَ مُوقِنًا وَمَـا تَنْفَـعُ الْآيَـاتُ مَـنْ كَـانَ يَجْحَـدُ

«**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ مُوقِنًا**» أي: براهين وحججٌ دالَّةٌ على وحدانيَّة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، لكن لا ينتَفع بهذه الآياتِ كلُّ أحد، وإنَّما ينتفعُ بها المُوقِنون كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ٢٠**﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ]، قال ابنُ كثير في «تفسيره» للآية: «أي: فيها منَ الآياتِ الدَّالَّة على عظمَة خالقِها وقدرتِه الباهرة، ممَّا قد ذرأ فيها من صُنُوف النَّبات والحيوانات، والمهاد والجبال،

(١) في نسخة (ص): آيات تشهد.

والقِفار والأنهار والبِحار...»[1].

لكن الانتفاع بهذه الآيات إنَّما هو للمُوقنين، أمَّا مَن سِواهم فلا ينتَفعون ولا يستَفيدون؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَمَا تَنْفَعُ الآيَاتُ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ**» قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿**قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾**﴾ [سُورَةُ يُونُسَ] أي: ما تنفعُ ولا تفيدُ ولا تُجدي، قال ابنُ كثير: «أي: وأيُّ شيءٍ تُجدي الآياتُ السَّماويَّة والأرضيَّة، والرُّسُل بآياتها وحُجَجها وبراهِينها الدَّالَّةِ على صِدقِها، عن قوم لا يؤمنونَ»[2]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾**﴾ [سُورَةُ يُونُسَ]، وقال تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾**﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ]، فالمُعرِضُ الغافلُ لا ينتَفع بالآياتِ وإن كَثُرت وتعَدَّدت، ومرَّ بها كلَّ وقتٍ وحينٍ.

٣٤ـ وَفِي النَّفْسِ آياتٌ وَفِيهَا عَجَائِبٌ[3] بِهَا يُعْرَفُ اللهُ العَظِيمُ وَيُعْبَدُ

«**وَفِي النَّفْسِ آيَاتٌ**» أي: والنَّفسُ البشريَّةِ فيها آياتٌ عظيمةٌ، كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾**﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ]، بما أودَعَ الله فيها من أسرار عظيمةٍ دالَّةٍ على كمالِ خالقه ـ جلَّ وعلا ـ.

«**وَفِيهَا عَجَائِبٌ**» أي: آياتٌ يتعجَّبُ مِن حسنِها وجمالها، وكمالِ إتقانها.

«**بِهَا**» أي: هذه الآيات «**يُعْرَفُ الله**» لكونها تهدي المتأمِّلَ، وترشُدُه إلى معرفة

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٣٩٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٩٩).

(٣) في نسخة (م): وفي النَّفس مِن آيات الحكيم عجائب.

كمال هذا الخالق العظيم.

«**وَيُعْبَدُ**» أي: وتدلُّ على وجوب إفرادِه بالعبادةِ، قال قتادة: «مَن تفكَّر في خلق نفسِه علمَ أنَّه إنَّما لُيِّنَت مفاصلُه للعبادَة»[1].

وفي هذا إشارةٌ إلى نوعي التَّوحيد العِلمي والعَملي، وكلاهما مقصود الخلق، قال تعالى في بيان أنَّه خَلَقَ الخَلْقَ ليعرفوه ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾**﴾ [سُورَةُ الطَّلَاقِ]، وقال تعالى في بيان أنَّه خلقَهم ليَعبُدوه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾**﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ].

٣٥ـ لَقَدْ قَامَتِ الْآيَاتُ تَشْهَدُ أَنَّهُ إِلَـٰهٌ عَظِيمٌ فَضْلُهُ لَيْسَ يَنْفَدُ[2]

«**لَقَدْ قَامَتِ الآيَاتُ**» أي: المتنوِّعة الكثيرةُ الباهرةُ العظيمةُ «**تَشْهَدُ أَنَّهُ إِلَٰهٌ عَظِيمٌ**» والإله هو المعبود، فهذه الآياتُ قامت شاهدةً على وجوبِ إفرادِه ـ تبارك وتعالى ـ بالعبادة، وإخلاصِ الدِّين له.

هذا وإنَّ منَ السَّفَه العظيم والشَّطط البيِّن أن يتوجَّه الإنسانُ في عبادته وسؤاله وطلبه ورغبتِه ورهبتِه إلى ترابٍ أو قبَّةٍ من القِباب أو حفرةٍ من الحفر أو شجرةٍ من الأشجار يعرِضُ عليها حاجاته، ويُنزل بها طلباتِه، ولا يتوجَّه في سؤاله وطلبه إلى الرَّبِّ العظيم الخالق الَّذي قامت الآياتُ والبراهينُ والشَّواهد والحجج على أنَّه الإلهُ العظيم، أي: المعبود بحقٍّ ولا معبودَ بحقٍّ سِواه، وأنَّه هو الَّذي يجبُ

(١) «العظمة» لأبي الشَّيخ (١/ ٢٣٣).

(٢) في نسخة (ص): يعدَّدُ.

أن يُتوجَّه إليه بالدُّعاء، وبالرَّجاء، وبالسُّؤال، وبالطَّلب، وبالرَّغب والرَّهب، ويمرُّ كثيرٌ من النَّاس على هذه الآيات وهُم عنها غافلون، ويشاهدونها بأبصارِهم ولا ينتفعون؛ ولهذا يتوجَّهون إلى غير الله سؤالًا وطلبًا وذلًّا وخضوعًا وانكسارًا، فما انتفَعُوا بهذه الآيات القائمة شاهدةً على وحدانيَّة الله، ووجوب إفرادِه ـ سبحانه وتعالى ـ بالعبادة.

«**فَضْلُهُ لَيْسَ يَنْفَدُ**» أي: مَنُّهُ وجُودُه وعطاؤُه لا ينفد ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ** ﴾ [النحل: ٩٦]، خزائنه مَلأى ـ سبحانه وتعالى ـ، والفَضل كلُّه فضلُه لا شريكَ له ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ** ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ** ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وفي الحديث القدسيِّ يقول ـ جلَّ وعلا ـ: «**يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ**»[(١)].

٣٦ـ فَمَنْ كَانَ مِنْ غَرْسِ الْإِلَهِ أَجَابَهُ[(٢)] وَلَيْسَ لِمَنْ وَلَّى وَأَدْبَرَ مُسْعِدُ

«**فَمَنْ كَانَ مِنْ غَرْسِ الإِلَهِ أَجَابَهُ**» وانتفع بهذه الآياتِ وأقبلَ على الله مجيبًا ممتثلًا مطيعًا منقادًا لشَرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

يشير إلى حديثٍ خرَّجَه أحمد وابن ماجه وغيرهما عن أبي عِنبة الخولاني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لَا يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ**»[(٣)]، وقوله: «**لَا يَزَالُ**» يفيد الاستمرار؛ بمعنى أنَّه كلَّما انتهى

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) في نسخة (م): أجابها.

(٣) «سنن ابن ماجه» (٨)، وحسَّنه الألباني.

غرسٌ بالموتِ أخلَفَهم ـ جلَّ وعلا ـ غرسًا آخَر، وهو بمَعنى الحديثِ الآخر: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَة**»[(١)]، وقد قال العلَّامة ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وغَرْسُ الله هُم أهلُ العلم والعَمل، فلو خَلَت الأرضُ من عالم خَلَت مِن غَرْس الله»[(٢)]، فلا يزالُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يغرسُ عبادًا له أهلَ علمٍ وعملٍ في كلِّ وقتٍ، إذا ماتَ منهم قومٌ أخلَفَهم ـ تبارك وتعالى ـ آخَرين، بهم ـ سبحانه تعالى ـ يؤيِّد دينَه، وبهم ينصُر شرعَه؛ قال ابنُ القيِّم: «ولكنَّ الله برحمتِه وعنايتِه بهذه الأمَّةِ يبعثُ لها عند دروس السُّنَّة، وظهورِ البدعةِ مَن يجدِّدُ لها دينَها، ولا يزالُ يغرسُ في دينه غرسًا يستَعملهم فيه علمًا وعملًا»[(٣)]، جعلهم ـ سبحانه ـ أنصارًا لدينه، وهداةً لعبادِه بمنِّه وكرمِه ـ سبحانه وتعالى ـ.

«**وَلَيْسَ لِمَنْ وَلَّى وَأَدْبَرَ مُسْعِدُ**» مَن يولِّي ويُدبِر أي: يُعطي هذه الحجج وهذه البَراهين دُبُره معرضًا فليسَ له مُسْعِد، أي: لا يجد أينَما ذهبَ، وأينَما ولَّى سبيلا للسَّعادة، ولا طريقًا للفلاح؛ فإنَّ سبيلَ السَّعادة، وطريقَ الفلاح إنَّما يكونُ بطاعة الله، واتِّباع هُداه ﴿**فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾**﴾ [سُورَةُ طه].

وهذا أيضًا فيه تنبيهٌ من النَّاظم إلى أنَّ هؤلاء الَّذين يولُّون عن آيات الله مُعرِضين، وعن براهينه مُدبرين، يبحثون ويلهثون وراءَ سعادةٍ لم يحصِّلها ويظفر بها مَن سعى سعيهم ؛ إذ لا يظفر بالسعادةِ ولا يفوز بها إلَّا مَن سلك الجادَّةَ،

(١) «صحيح ابن حبَّان» (٦٦٧٩)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٩٥٧).

(٢) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ١٤٤).

(٣) «الصَّواعق المرسلة» (٢/ ٤٠٠).

ومضى على صراط الله المستقيم، فإنَّ خالقَ هذا الكون ومُوجِدَه ـ سبحانه وتعالى ـ قضَى أن لا يسعَدَ في هذه الحياة الدُّنيا ولا في الدَّار الآخرة إلَّا مَن سلكَ سبيلَه المستقيمَ، وصراطَه القَويم.

٣٧ـ عَلَيْكَ بِتَقْوَى الله فِي فِعْلِ أَمْرِهِ وَتَجْتَنِبُ[١] الْمَنْهِيَّ عَنْهُ وَتُبْعِدُ

«**عَلَيْكَ بِتَقْوَى الله**» أي: الزَم تقوى الله، وحافِظ عليها، وكُن من أهلها «**فِي فِعْلِ أَمْرِه وَتَجْتَنِبُ المَنْهِيَّ عَنْهُ وَتُبْعِدُ**»، وهذه حقيقةُ التَّقوى فعلٌ للأوامر واجتنابٌ للنَّواهي، كما قال طَلْقُ بن حَبيب رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا سُئل عن التَّقوى: «تقوى الله أن تعملَ بطاعة الله، على نورٍ من الله، رجاءَ ثوابِ الله، والتَّقوى ترك معاصي الله، على نورٍ من الله، خوفَ عقاب الله»[٢] فجمع رَحِمَهُ اللهُ بين الحثِّ على التَّقوى والتَّرغيب فيها، وبيانِ حقيقتِها.

٣٨ـ وَكُنْ مُخْلِصًا لله[٣] وَاحْذَرْ مِنَ الرِّيَا وَتَابِعْ رَسُولَ الله إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ

«**وَكُنْ مُخْلِصًا لله**» أي: في أعمالكَ كلِّها، قال الله تعالى: ﴿**أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ**﴾ [الزُّمَر: ٣]، وقال: ﴿**وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**﴾ [البَيِّنَة: ٥]، والخالصُ: الصَّافي النَّقيُّ الَّذي لا شائبةَ به؛ ومعنى إخلاصِ الدِّين لله أي: أن يكونَ صافيًا نقيًّا لا يُراد به إلَّا الله؛ لا يُراد به الدُّنيا، ولا الرِّياء ولا السُّمعة، ولا غير ذلك منَ الأغراض.

«**وَاحْذَرْ مِنَ الرِّيَا**» وهو ضدُّ الإخلاص، أي: كن على حذرٍ شديدٍ من الرِّياء، والرِّياء هو إظهار العبادةِ لقَصد رؤيةِ النَّاس، فيَحمدوا صاحبَها ويمدَحُوه ويُثْنُوا

---

(١) في نسخة (م): وتجنب.

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطَّة (٢/ ٥٩٨).

(٣) في نسخة (ص): وأخلص له الأعمال.

عليه، وقد خافَ النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام على أمَّتِه منه خوفًا شديدًا وضربَ له مِثالًا قال: «**يَقُومُ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»(١).

«**وَتَابِعْ رَسُولَ الله إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ**» أي: في أعمالك التَّعبُّديَّة، وما تتقرَّبُ به إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فإنَّ الأعمالَ الَّتي يُقصد بها التَّقرُّبُ إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ إذا كانت على غير هديه، وعلى غير طريقتِه، فإنَّها مردودةٌ على المتقرِّب ليست مقبولةً منه، وقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢) أي: مردودٌ على صاحبه وغير مقبولٍ منه.

وقد جمع النَّاظمُ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا البيت بين شَرطي قَبول العَمل: الإخلاص للمَعبود، والمتابعة للرَّسول ﷺ، فالعَمل لا يُقبل إلَّا إذا كان لله خالصًا، ولهدي رسولِه ﷺ موافقًا.

قال ابنُ القيِّم في «الوابل الصَّيِّب»(٣): «ليس الشَّأنُ في العمل، إنَّما الشَّأنُ في حفظ العَمل ممَّا يُفسده ويُحبطه، فالرِّياءُ ـ وإن دقَّ ـ محبطٌ للعَمل، وهو أبوابٌ كثيرةٌ لا تُحصَر، وكون العَمل غيرَ مقيَّدٍ باتِّباع السُّنَّة أيضًا موجبٌ لكونِه باطلًا».

٣٩ـ تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمٰنِ حَقًّا وَثِقْ بِـهِ(٤) لِيَكْفِيَـكَ مَـا يُغْنِيـكَ حَقًّـا وَتَرْشُـدُ

«**تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمٰنِ حَقًّا**» والتَّوكل: عمل القَلب؛ أي: ليكن التَّوكُّل قائمًا في

(١) «سنن ابن ماجه» (٤٢٠٤)، وحسَّنه الألباني.

(٢) مسلم (١٧١٨).

(٣) (ص٢٠).

(٤) في نسخة (ص): وارج ثوابه.

قلبك حقيقةً، وهو: أن يفوِّضَ العبدُ أمرَه إلى الله، ويسلِمُ نفسَه لله، ويلتجئُ إلى الله طالبًا منه وحدَه المدَّ والعونَ والتَّوفيقَ والسَّدادَ والحفظَ، «**وَثِقْ بِهِ**» والثِّقة توكُّل، بل هي «خلاصةُ التَّوكُّل ولُبُّه» كما قال ذلك ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المدارج»[(١)]، فلا تكون إلَّا بالله لا بالنَّفس، وفي الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[(٢)].

«**لِيَكْفِيكَ مَا يُغْنِيكَ حَقًّا**» ذكر هنا ثمرةَ التَّوكُّل وعاقبتَه الحميدة، ففي أمر دُنياك يكفيك ـ سبحانه وتعالى ـ ما يُغنيك وييسِّر لك الرِّزقَ الحلالَ، والمالَ الطَّيِّب، وفي أمر دينِك يوفِّقُك لسلوك سبيل الرَّشاد، «**وَتَرْشُدُ**» أي: تنال سبيل الرَّشاد، وهذا فيه تنبيهٌ من النَّاظم إلى أنَّ التَّوكُّل يجبُ أن يكون مصاحبًا للعبد في أموره الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، فيجب أن تتوكَّل على الله في أمور دنياك ليكفيك ما يُغنيك، ويجبُ أن تتوكَّل عليه ـ سبحانه وتعالى ـ في أمور دينك لترشد.

٤٠ـ تَصَبَّرْ عَنِ العِصْيَانِ وَاصْبِرْ لِـحُكْمِهِ وَصَابِرْ عَـلَى الطَّاعَـاتِ عَلَّـكَ تَـسْعَدُ

في هذا حثٌّ على الصَّبر بأنواعه الثَّلاثة، إذ «الصَّبر باعتبار متعلَّقِه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطَّاعات حتَّى يؤدِّيها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتَّى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتَّى لا يتسخَّطها»[(٣)].

وأوَّلها ـ على ترتيب النَّاظم ـ:

---

(١) (٢/ ١٤٣).

(٢) «سنن أبي داود» (٥٠٩٠)، وحسَّن إسناده الألباني.

(٣) «عدَّة الصَّابرين» لا بن القيِّم (ص: ٢٨).

«**تَصَبَّرْ عَنِ العِصْيَانِ**» بمنع النَّفس عن فعل الذُّنوب وحبسِها عن الوقوع في محارم الله ومقارفتِها؛ فإنَّها تحتاج إلى صبر لتمتَنع عن المعاصي، ومَن لا صَبر عنده تفلَّتت نفسُه عند أدنى شهوة، فما أن يدعوه الدَّاعي وتناديه الشَّهوةُ ـ وما أكثرها في زماننا هذا ـ اندفع وراءها وانساقَ؛ وهذا لا يوفَّق، بينما إذا كان متحلِّيًا بالصَّبر وُفِّق للامتناع عن المعاصي والانكفاف عن فعلها، وفي الحديث: «**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله**»[1] أي: مَن تصبَّر مرَّةً بعد مرَّةٍ فاز بالعاقبة الحميدة.

وثانيها: «**وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ**» أي: اصبر على ما يقدِّره الله عليكَ، ويقضيه من أقضية من مُصابٍ أو ابتلاءٍ أو نحو ذلك ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾** ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

فالمراد بالحكم هنا أي: الحكم الكونيُّ القدريُّ؛ لأنَّ الحكم تارةً يُراد به الحكم الكونيُّ القدريُّ، وتارةً يُراد به الحكم الشَّرعيُّ الدِّينيُّ، وقد بيَّن رَحِمَهُ اللهُ الحكمَ الشَّرعيَّ الدِّينيَّ وهو ترك المعاصي وفعل الطَّاعات، فيكون مرادُه بقوله «**وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ**» أي: حكمه الكونيُّ القدريُّ.

وثالثها: «**وَصَابِرْ عَلَى الطَّاعَاتِ**» صابر نفسَك على طاعاتِ الله، فالطَّاعةُ تحتاج من العبد إلى صبر ليفعلها وليواظبَ على أدائها ﴿**فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ**﴾ [مَرْيَمَ : ٦٥]، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾** ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

«**عَلَّكَ تَسْعَدُ**» أي: إذا أكرمكَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ واجتمعَت لك هذه

(١) البخاري (١٤٦٩).

الأنواع الثَّلاثة من الصَّبر: الصَّبر عن المعاصي، والصَّبر على أقدار الله المؤلمة، والصَّبر على الطَّاعات فُزتَ بسعادة الدَّارين الدُّنيا والآخرة؛ فهذا هو سَبيل السَّعادة وطريقُها.

٤١ـ وَكُنْ سَائِرًا بَيْنَ الْـمَخَافَةِ وَالرَّجَا هُمَـا كَجَنَـاحَيْ طَـائِرٍ حِـينَ تَقْـصِدُ

«**وَكُنْ سَائِرًا بَيْنَ المَخَافَةِ وَالرَّجَا**» حين تقصد في سَيرك اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ حبًّا له وطلبًا لرضاه كن في هذا السَّير إليه ـ تبارك وتعالى ـ بينَ المخافة والرَّجاء، وهذه الثَّلاث: المحبَّة والرَّجاء والخوف محرِّكاتٌ للقلوب يحتاج القلبُ إليها دومًا وأبدًا، ويجب أن تكونَ مع العبد باستمرار، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُعبد بالحبِّ والرَّجاء والخوف، وحبُّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الَّذي يجعلُ العبدَ يسير في هذا الطَّريق، والخوف والرَّجاء كما وصفَهما النَّاظم وأهلُ العلم قبلَه كجناحي الطَّائر في هذا المسير.

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولابدَّ من التَّنبيه على قاعدة تحرُّك القلوب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فتعتصِم به فتقلُّ آفاتُها أو تذهبُ عنها بالكلِّيَّة بحولِ الله وقوَّتِه؛ فنقول:

اعلَمْ أنَّ محرِّكات القلوب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ثلاثة: المحبَّة والخوف والرَّجاء، وأقواها المحبَّة وهي مقصودةٌ تُراد لذاتِها؛ لأنَّها تُراد في الدُّنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنَّه يزولُ في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿**أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢**﴾ [سُورَةُ يُونُسَ]، والخوفُ المقصودُ منه الزَّجر والمنع منَ الخروج عن الطَّريق، فالمحبَّة تلقي العبد في السَّير إلى محبوبه وعلى قَدر ضعفِها وقوَّتها يكونُ سيرُه إليه، والخوفُ يمنعه أن يخرجَ عن طريق المحبوب، والرَّجاء يقوده؛ فهذا أصلٌ عظيمٌ يجب على كلِّ عبدٍ أن يتنبَّه له؛ فإنَّه لا تحصل له

العبوديَّةُ بدونه، وكلُّ أحدٍ يجبُ أن يكونَ عبدًا لله لا لغيرِه»[1].

«حِينَ تَقْصِدُ» أي: حين تقصد اللهَ ـ جلَّ وعلا ـ محبًّا له، طالبًا لرضاه، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، قال شيخ الإسلام في «مجموع فتاويه»[2]: «فما حُفِظت حدودُ الله ومحارمُه، ووَصَل الواصلون إليه بمِثل خوفِه ورجائِه ومحبَّتِه؛ فمتَى خلا القلبُ مِن هذه الثَّلاث فسد فسادًا لا يُرجَى صلاحُه أبدًا؛ ومتى ضَعُف فيه شيءٌ من هذه ضَعُف إيمانُه بحَسبه».

٤٢ـ وَقَلْبَكَ طَهِّرْهُ وَمِنْ كُلِّ آفَـةٍ[3] وَكُــنْ أَبَــدًا عَــنْ عَيْبِــهِ تَتَفَقَّــدُ[4]

«وَقَلْبَكَ طَهِّرْهُ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ» أي: اجتهد في تطهير قلبكَ، وتنقيته مِن كلِّ الآفات كاجتهادِك في تطهير ملابسِك، وتنظيفِ بدنِك من الأوساخ، والقلبُ أولى بالتَّطهير، وهو يُبتلى بآفاتٍ كثيرة، ويُصَاب بأسقام عديدة؛ قال شيخ الإسلام في كتابه «أمراض القلوب وشفاؤها»[5]: «مرضُ القلب هو نوعُ فسادٍ يحصل له، يفسُدُ به تصوُّره وإرادتُه: فتصوُّره بالشُّبهات الَّتي تعرض له حتَّى لا يرى الحقَّ أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادتُه بحيث يبغضُ الحقَّ النَّافع، ويحبُّ الباطل الضَّارَّ»، وتطهير القلب يكونُ بالتَّوحيد والإخلاص والصِّدق، وعمارتُه بالأعمال القلبيَّة

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥).

(٢) (١٥/ ٢١).

(٣) في نسخة (ص): من كلِّ آفة.

(٤) في نسخة (ص): وكفَّ الأذى عن غيرك تسْعَد.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٩٣).

الصَّالحة الَّتي يكونُ بها طهارةُ القلب ونقاؤه وسلامتُه، قال ابنُ القيِّم في «الفَوائد»[1]: «القلبُ يمرضُ كما يمرض البدنُ، وشفاؤه في التَّوبة والحِمية، ويصدأ كما تصدأ المرآةُ، وجلاؤه بالذِّكر، ويعرى كما يعرى الجسم، وزينتُه التَّقوى، ويجوعُ ويظمأ كما يجوعُ البدنُ، وطعامُه وشرابُه المعرفةُ والمحبَّة والتَّوكُّل، والإنابة...».

«**وَكُنْ أَبَدًا عَنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ**» أي: دائمًا فتِّش عن عيوب نفسِك، وعن أمراض قلبك، وماذا فيك منَ الآفات، لتعمَل على تنقيته وتطهيره مستعينًا بالله ـ تبارك وتعالى ـ، قال ابنُ القيِّم[2]: «مَن لم يطهِّر اللهُ قلبَه فلابدَّ أن يناله الخزيُ في الدُّنيا، والعذابُ في الآخرة بحسب نجاسَةِ قلبه وخبثِه».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٣ـ وَجَمِّلْ بِنُصْحِ الخَلْقِ قَلْبَكَ إِنَّهُ لَأَعْلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وَأَجْوَدُ

«**وَجَمِّلْ بِنُصْحِ الخَلْقِ قَلْبَكَ**» أي: حلِّه وزيِّنه دائمًا وأبدًا بالنُّصح للخَلق، والمسلم مطلوبٌ منه أن يكون دائمًا ناصحًا للمسلمين غيرَ غاشٍّ لهم، والنَّصيحة ضدُّها الغشُّ، وقد قال ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ: «**لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِم**»[3]، وتكون النَّصيحةُ لهم بأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسِه، ويكرهُ لهم ما يكرهُ لنفسِه، ويشفِقُ عليهم، ويرحَمُ صغيرَهم، ويوقِّر كبيرَهم، ويحزنُ لحزنهم، ويفرحُ لفرحِهم، ويحبُّ صلاحَهم وأُلْفَتَهم ودوامَ النِّعم عليهم، ونصرَهم على عدوِّهم، ودفعَ كلِّ أذًى ومكروهٍ عنهم، ونحو ذلك من المعاني.

---

(١) (١٨٣).

(٢) «إغاثة اللَّهفان» (١/ ٧٠).

(٣) مسلم (٥٥).

«**إِنَّهُ لَأَعْلَى جَمَالٍ لِلقُلُوبِ وَأَجْوَدُ**» أي: أنَّ النَّصيحة للخلق والسَّلامة من غشِّهم تعدُّ جمالًا للقلوب وزينةً لها، بل هي أجملُ وأجودُ ما تتجمَّل به القلوبُ وتتحلَّى، ونقيض ذلك الغشُّ، فإنَّه مِن أسوء ما تتَّصفُ به القلوب، بل هو من أعظم أسباب ظُلمَتها وتَلَفِها.

٤٤ـ وَصَاحِبْ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ يَقُودُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ

«**وَصَاحِبْ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ**» أي: احرِص على انتقاء الأصحاب وتخيُّر الإخوان، ففي الحديث الصَّحيح عن نبيِّنا عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال: «**المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**»[1]، فليس للمُؤمن أن يمشي مع مَن شاء، بل ينبغي له أن يتخيَّر منَ الأصحاب والإخوان والرُّفقاء كلَّ موفَّق، والتَّوفيقُ أمرُه إلى الله، لكن لنا الظَّاهر والله ـ تبارك وتعالى ـ يتولَّى السَّرائر، فإذا رأينا أماراتِ التَّوفيق على الشَّخص بالمحافظة مثلًا على الصَّلاة، وهي أكبر ميزان بل هي ميزانٌ يوميٌّ؛ تكتشفُ بها حالَ صاحبك خلالَ أربع وعشرين ساعة، هل هُو مِن أهل الصَّلاة أو مِن المضيِّعين لها، فإذا كان مِن أهلِها فهذا من أماراتِ التَّوفيق، وإذا كان من المضيِّعين لها فلا خير في صحبته إلَّا إذا كنتَ تريد معالجتَه وإصلاحَه، لا أن يُتَّخذَ خليلًا وصاحبًا.

«**يَقُودُكَ لِلخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ**» وهذا أيضًا مِن أماراتِ الموفَّقِين الَّذين لا يُفرَّط في صحبتِهم: النُّصح والإرشاد لمن يصاحبُهم، وكونُهم يقودونه للخَيرات، بخلاف خُلطاء الفَساد، ولهذا ضربَ النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام مثلًا يوضِّح من خلاله تأثير الصَّاحب على صاحبه سواء في باب الخير أو في باب الشَّرِّ فقال: «**مَثَلُ**

(١) «مسند الإمام أحمد» (٨٤١٧)، و«سنن أبي داود» (٤٨٣٣)، و«جامع التِّرمذي» (٢٣٧٨)، وحسَّنه الألباني.

الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الكِيرِ؛ فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً؛ وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»(١)، فالصَّاحب لابدَّ أن يكون له أثرٌ على صاحبه وتأثيرٌ على جليسه، فمَن صحِب طلَّابَ العلم وجَدَ في نفسِه رغبةً عظيمةً في طلب العلم، ومَن صحبَ عُبَّادًا وجَد في نفسِه نشاطًا للعبادة، وكذلك مَن صحبَ صاحبَ صَنْعةٍ ما وجَد نفسَه مالت إلى صنعتِه، وهكذا صحبةُ الفسَّاق لها أثرُها الخطير، وضررُها المستَطير، فالصَّاحبُ يؤثِّر في صاحبه ولابدَّ.

وإذ كان الأمر كذلك؛ فإنَّ الَّذي ينبغي على المسلم النَّاصح لنفسِه أن يصاحب كلَّ موفَّق، ليَسْلَم وليفُوزَ بخير مغْنَم.

٤٥ـ وَإِيَّاكَ وَالْـمَرْءَ الَّذِي إِنْ صَحِبْتَهُ(٢) خَسِرْتَ خَسَارًا(٣) لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدُ

يحذِّرُ من قَرين السُّوء وخليطِ الفساد، ومَن صُحْبَته شرٌّ على الإنسان؛ سواءٌ من أرباب البدع والمقالاتِ الباطلة، أو مِن أصحاب الفُسوق والمعاصي والآثام؛ لأنَّ مصاحبةَ مثل هؤلاء ومُباسَطتَهُم تؤدِّي إلى التَّأثُّر بهم، إلَّا إذا جلسَ مؤثِّرًا بما آتاه الله من العلم والنَّصيحة والبيان، أمَّا إن جلسَ معهم مجالسَ مؤانسةٍ ومباسطةٍ فقد يأتي عليه يومٌ يكونُ فيه مثلهم متأثِّرًا بهم.

وفي زماننا هذا استجدَّ نوعٌ من الأصحاب والخلطاء لم يكن لهم وجودٌ في الزَّمن السَّابق، وأثَّر على جليسِه تأثيرًا خطيرًا للغاية، وجنَى على كثير من النَّاس

(١) البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

(٢) في نسخة (ص): الَّذي ساء فعله.

(٣) في نسخة (ص): فتخسر خسرًا.

جنايةً بالغةً، ألا وهو مجالسة القنوات الفضائيَّة ومواقع الشَّبكة العنكبوتيَّة، فكثيرٌ من النَّاس أصبحَ له مع المواقع والقنوات صحبةٌ يجالسُها جلساتٍ طويلةٍ جدًّا، ويرى الأشخاصَ الَّذين يصاحبُهم في تلك القنوات أو المواقع، ويسمَع أحاديثَهم، ويشاهدُ أفعالهم، ثمَّ مع مرِّ الأيَّام يتأثَّر بتلك الأخلاقيَّات؛ بل بذلك السُّفول والانحطاط والتَّردِّي والأعمال المشينة القبيحة، وكَم من أناس جنَت تلك المشاهدات عليهم جنايةً عظيمةً في أديانهم، وعباداتهم، وأخلاقهم، وعقولهم، وأحدثت فيهم تحوُّلًا خطيرًا.

فوجَبَ أخذُ الحيْطَة والحذَر حتَّى يسلَم للمرء دينُه، أمَّا أن يكون مخاطِرًا بدينه بهذه الطَّريقة المزرية ـ والعياذ بالله ـ؛ فهذا من أعظم الجناياتِ، وأعظم أسباب الخسران، كما قال النَّاظم: «**خَسِرْتَ خَسَارًا لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدُ**» أي: بيِّنًا واضحًا لاشكَّ في وضوح خطورتِه ولا ريب.

٤٦ـ خُذِ العَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ ... كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ

يشير هذا البيت إلى قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾**﴾ [سُورَةُ الأَعْرَافِ]، وهذه الآية ـ كما قال غير واحدٍ من أهل العلم ـ: هي أجمعُ آيةٍ في باب الآداب والأخلاق، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «وهذه الآية فيها جماعُ الأخلاق الكريمة؛ فإنَّ الإنسانَ مع النَّاس إمَّا أن يفعلوا معه ما يحبُّ[(١)] أو ما يكره، فأمر أن يأخُذَ منهم ما يحبُّ ما سمَحُوا به، ولا يُطالبُهم بزيادة، وإذا فعلوا معه ما يكرَه أعرضَ عنهم»[(٢)].

(١) في الأصل: غير ما يحب، ولعل لفظة (غير) زائدة.
(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٠/ ٣٧٠).

وللنَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ كلامٌ عظيمٌ في بيان مدلول هذه الآية الكريمة في كتابه «التَّفسير»، أشاد به تلميذُه الشَّيخ محمَّد بن صالح العُثيمين في مقدَّمته لتفسير الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وعدَّه ميزةً من ميزاتِ هذا التَّفسير، وأنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ اعتنى فيه بالجانب التَّربوي وتهذيب الأخلاق، قال ابنُ سعدي: «هذه الآية جامعةٌ لحُسْن الخُلُق مع النَّاس، وما ينبغي في معاملتِهم، فالَّذي ينبغي أن يُعامل به النَّاس، أن يأخُذَ العفْوَ، أي: ما سمَحَت به أنفسُهم، وما سَهُل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلِّفُهم ما لا تسمَحُ به طبائعُهم، بل يشكُر مِن كلِّ أحدٍ ما قابله به، مِن قولٍ وفعل جميل أو ما هو دونَ ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم، ويغضُّ طرفَه عن نقصِهم، ولا يتكبَّر على الصَّغير لصِغره، ولا ناقصَ العقل لنقصِه، ولا الفَقير لفقره، بل يعاملُ الجميعَ باللُّطف والمقابلة بما تقتَضيه الحالُ، وتنشرحُ له صدورُهم، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بكلِّ قولٍ حسن، وفعلٍ جميل، وخلقٍ كامل للقريب والبَعيد، فاجعل ما يأتي إلى النَّاس منك: إمَّا تعليمُ علم، أو حثٌّ على خير، من صلةُ رحم، أو برُّ والدين، أو إصلاحٌ بين النَّاس، أو نصيحةٌ نافعة، أو رأيٌ مصيب، أو معاونةٌ على برٍّ وتقوى، أو زجرٌ عن قبيح، أو إرشادٌ إلى تحصيل مصلحة دينيَّة أو دنيويَّة، ولمَّا كان لابدَّ من أذيَّة الجاهل، أمَرَ الله تعالى أن يُقابَلَ الجاهلُ بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بجهلِه، فمَن آذاك بقوله أو فعله لا تُؤذه، ومَن حرمَك لا تحرمه، ومَن قطعَك فَصِلْهُ، ومَن ظلمَك فاعدل فيه»(١)، وله كلامٌ أوسعُ من هذا وأوفى في كتابه «الرِّياض النَّاضرة»(٢) في بيان دلائل هذه الآية

(١) «تيسير الكريم الرَّحمن» عند الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.

(٢) انظر كلامه في «الرِّياض النَّاضرة» ص(٨٦).

وفوائدها الجليلة.

«خُذِ العَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ» فيه تنبيهٌ إلى أنَّ مَن تصاحب من النَّاس ليسوا على معدنٍ واحدٍ ولا على مستَوى واحدٍ في الأخلاق بل متفاوتون ، فخُذ العفْوَ وهو ما سمحَت به أخلاقُ النَّاس حسبَ طباعِهم ومعادنِهم، ولا تنتظر الكمالَ من الجميع؛ فمِن النَّاس مَن يلقاك بأخلاق كريمة عالية، ومنهُم مَن يلقاك بأخلاق سيِّئة ومعاملات غليظة، فخُذ هذا وذاك؛ هذا تأخذه بالتَّقدير والاحترام، وذاك تأخذُه بالعفو والصَّفح، وليس منَ الضَّروريِّ أنَّ مَن يسيءُ إليك هذه المرَّة أن يستمرَّ مُسيئًا، بل إذا أخذتَه بالعفو وعامَلته باللُّطف، ودفعتَه بالَّتي هي أحسن تحسَّنت أخلاقُه، واستفاد منك خُلقًا كريمًا.

والواقعُ الَّذي ينبغي أن يكونَ في مثل هذا المقام أن يستفيد صاحبُ الخلق السَّيِّء من صاحب الخُلُق الجميل، لا أن تنعكسَ القضيَّةُ بأن يكونَ صاحبُ الخلق الجميل هو المتأثِّر بصاحب الخلق السَّيِّء، بل الحقُّ أن يبقى على مستواه في الخلق العالي والدَّفع بالَّتي هي أحسن، وكظم الغَيظ، والعَفو عن النَّاس، حتَّى يستفيدوا من أخلاقه الجميلة، وأدبه الكريم.

«كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ»؛ كما يأمرك بذلك الله ـ سبحانه وتعالى ـ في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [سُورَةُ الأَعْرَافِ].

٤٧ـ تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا فَلَيْسَتْ إِقَامَةً ... وَلَكِنَّهَا زَادٌ لِمَنْ يَتَزَوَّدُ

«تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا فَلَيْسَتْ إِقَامَةً» أي: لا تعتَبر هذه الحياةَ الدُّنيا موطنًا لك ومستقَرًّا، فهي ليست دارَ إقامة؛ بل هي دار ظَعْن وانتقال وارتحال، فالدُّنيا مرتحلةٌ، وأهلُها مرتحلون كما جاء في الأثر عن عليٍّ ﵁ قال: «ارْتَحَلَت الدُّنْيَا

مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَت الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ واحدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ؛ فَكُونُوا مِن أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِن أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ ولَا حسَاب، وَغَدًا حسَابٌ ولَا عمَل»[١]، وقال بعضُ الحكماء: «عجبتُ ممَّنِ الدُّنيا موليةٌ عنه، والآخرةُ مقبلةٌ إليه يشتغلُ بالمُدبرة ويُعرِضُ عن المُقبلة»[٢]، بل حالُ الإنسانِ في هذه الحياة كحال المسافر، وفي الحديث عن ابن عُمَر قال: «أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: **كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[٣]؛ بأن يكون مستعدًّا متهيِّئًا محافظًا على فرائض الإسلام وواجبات الدِّين مُبتعدًا عن الحرام؛ لأنَّه سينتقل مِن هذه الدَّار ثمَّ يُجزى على كلِّ أعماله، قال ابنُ رجب في «جامع العلوم والحكم»[٤]: «وهذا الحديثُ أصلٌ في قِصَر الأمل في الدُّنيا، وأنَّ المؤمنَ لا ينبغي له أن يتَّخذَ الدُّنيا وطنًا ومسكنًا، فيطمئنُّ فيها، ولكن ينبغي أن يكونَ فيها كأنَّه على جناح سفر: يهيِّئُ جهازَه للرَّحيل، وقد اتَّفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم، قال تعالى حاكيًا عن مؤمن آل فرعون أنَّه قال: ﴿**يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ** ٣٩﴾ [سورة غافر]، وكان النَّبيُّ ﷺ يقول: «**مَالِي وَلِلدُّنْيَا؛ إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا، كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»».

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرِّقاق، باب في الأمل وطوله ، تعليقًا.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٧٨).

(٣) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٤) (٢/ ٣٧٧).

«وَلَكِنَّهَا زَادٌ لِمَنْ يَتَزَوَّدُ» أي: الدُّنيا زادٌ للآخرة، وبحسب نوع الزَّادِ يكونُ الحصادُ والثِّمار يومَ القيامة، فمَن زرع خيرًا وجَدَ ثوابَه وأجرَه، ومَن زرعَ شرًّا وجَدَ عقوبَتَه ووِزرَه، وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة]، قال عُمَر بن عبد العزيز في خطبته: «إنَّ الدُّنيا ليست بدارِ قرارِكُم، كتبَ اللهُ عليها الفناءَ، وكتبَ على أهلها منها الظَّعَن، فكم من عامرٍ موثَق عمَّا قليلٍ يَخْرَبُ، وكم من مقيمٍ مُغتَبطٍ عمَّا قليل يَظعَنُ، فأحسنُوا ـ رحمكم الله ـ منها الرِّحلةَ بأحسن ما بحَضْرتكم مِن النُّقلة، وتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزَّاد التَّقوى»(١).

قال ابنُ رجب: «وإذا لم تكن الدُّنيا للمُؤمن دارَ إقامة، ولا وطنًا، فينبغي للمؤمن أن يكون حالُه فيها على أحدِ حالين: إمَّا أن يكونَ كأنَّه غريب مقيمٌ في بلد غُربةٍ، هَمُّه التَّزوُّد للرُّجوع إلى وطنه، أو يكون كأنَّه مسافرٌ غير مقيم البتَّة، بل هو ليله ونهارَه، يسيرُ إلى بلدِ الإقامة، فلهذا وصَّى النَّبيُّ ﷺ ابنَ عمر أنْ يكونَ في الدُّنيا على أحد هذين الحالين»(٢)، والموفَّق مِن عبادِ الله مَن يُحسِنُ الزَّاد ليوم المعاد.

٤٨ـ وَكُنْ سَالِكًا طُرْقَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا ... إِلَى المَنْزِلِ البَاقِي الَّـذِي لَـيْسَ يَنْفَـدُ

«وَكُنْ سَالِكًا طُرْقَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا» أي: السَّلف الصَّالح ولا سيَّما الصَّحب الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فكن سالكًا طريقَ هؤلاء الأخيار

(١) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٢)، و«الزُّهد» لابن أبي الدُّنيا (٣٧٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٧٨).

سائرًا على نهجهم مقتفيًا أثرَهُم كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ؛ أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم»(١).

«**إِلَى المَنْزِلِ البَاقِي**» أي: الَّذين سبقوك إلى الدَّار الآخرة ومضَت حياتُهم على الاستقامة والسَّداد، والعلم النَّافع والعمل الصَّالح، فهؤلاء هُم القُدوة، وهُم القَومُ لا يشقى مَن يقتدي بهم، ويسيرُ على منهاجِهم.

٤٩ـ وَكُنْ ذَاكِرًا للهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ   فَلَيْسَ لِذِكْرِ اللهِ وَقْتٌ مُقَيَّدُ(٢)

«**وَكُنْ ذَاكِرًا للهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ**» أي: اعتن بذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كلِّ أحوالكَ، وجميع شؤونِك، ولا تكُن منَ الغافلين، وقد جاء في «صحيح مسلم»(٣) عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «**كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ**»، أي: في حال القيام، وفي حال القعود، وفي حال الاضطجاع، وفي حال الذَّهاب، وفي حال الرَّواح، في كلِّ ذلك يذكُر الله ـ جلَّ وعلا ـ، وكان صلواتُ الله وسلامُه عليه أكثَرَ عبادِ الله ذكرًا لله ـ جلَّ وعلا ـ.

«**فَلَيْسَ لِذِكْرِ اللهِ وَقْتٌ مُقَيَّدُ**» أي: ليس هناك وقتٌ مقيَّدٌ بحيثُ يُقال لا يُذكر الله ـ جلَّ وعلا ـ إلَّا في هذا الوقتِ؛ بل الله ـ جلَّ وعلا ـ يُذكر في كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ حين، وفي كلِّ ساعةٍ من ليل أو نهار، لكن هناك أوقاتٌ مقيَّدةٌ لأذكار معيَّنةٍ مثل أذكار الصَّباح، وأذكار المساء، وأذكار أدبار الصَّلوات، ونحو ذلك من الأذكار المقيَّدةِ بوقتٍ معيَّن أو حالٍ معيَّن أو سبب معيَّن؛ فهذا ليسَ تقييدًا للذِّكر

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٥)، و«شرح السُّنَّة» للبغوي (١/ ٢١٤).
(٢) في نسخة (ص): يقيد.
(٣) برقم (٣٧٣).

مطلقًا وإنَّما هو تقييدٌ لنوع من الأذكار بأوقاتٍ معيَّنةٍ، أمَّا ذكرُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مطلقًا فهو مشروعٌ في كلِّ وقت وحين.

ثمَّ شرع رَحِمَهُ اللهُ في عدِّ فضائل الذِّكر، قال:

٥٠ـ فَذِكْرُ إِلٰهِ الْعَرْشِ سِرًّا وَمُعْلَنًا   يُزِيلُ الشَّقَا وَالهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ

«**فَذِكْرُ إِلٰهِ العَرْشِ سِرًّا**» أي: في نفسِك، «**وَمُعْلَنًا**» أي: بلسانك، «**يُزِيلُ الشَّقَا**» هذه الفائدة الأولى من فوائد ذكر الله ـ جلَّ وعلا ـ أنَّه يزيلُ الشَّقاء، وزوال الشَّقاء يدلُّ على تحقُّق السَّعادة؛ لأنَّ الشَّقاءَ ضدُّه السَّعادة؛ فإذا زال الشَّقاءُ حلَّت السَّعادة وتحقَّقت للعبد الهناءةُ في عيشِه، وقُرَّة العين، وبهجة النَّفس، وسُرور القلب، «**وَالهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ**» ويزيلُ الهمَّ ويطردُه عن العبد، فذكرُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ شفاءُ الصُّدور، وجلاءُ الأحزان، وطبُّ القُلوب، وزوالُ المكدِّرات والكُربات، وهُو أعظم طاردٍ للغُموم، بل إنَّ الغموم والهمومَ لا تنطردُ إلَّا بالذِّكر، والقُلوب لا تطمئنُّ إلَّا به كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [سُورَةُ الرَّعْدِ].

٥١ـ وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيَا وَآجِلًا   وَإِنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشَرِّدُ

ذكر في هذا البيت فائدتين من فوائد الذِّكر:

الأولى في قوله: «**وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيَا وَآجِلًا**» أي: أنَّه جلَّابٌ للخَيرات والبَركات في حياة الذَّاكر: صحَّةً في بدنِه ، وقوَّةً في جسمِه، وصفاءً في عقلِه، وطيبًا في معيشتِه، إلى غير ذلك منَ الخيرات؛ «**وَآجِلًا**» أي: في الدَّار الآخرة، وثواب الآخرة أعظم، وعموما ما استُجلبَت النِّعمُ واستُدفعَت النِّقمُ في الدَّارين بمثل ذكرِ الله ـ جلَّ وعلا ـ.

والثَّانية في قوله: «**وَإِنْ يَأْتِكَ الوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشَـرِّدُ**» أي: أنَّه يطردُ الوسواسَ الَّذي هو الشَّيطان، فذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ طاردٌ للشَّيطان عن العَبد، والغَفلة عن ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جالبةٌ للشَّيطان.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلو لم يكُن في الذِّكر إلَّا هذه الخصلةُ الواحدةُ، لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتُرَ لسانُه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهِجًا بذكره، فإنَّه لا يحرزُ نفسَه من عدوِّه إلَّا بالذِّكر، ولا يدخل عليه العدوُّ إلَّا من باب الغَفلة، فهو يرصُدُه، فإذا غَفَل وثَبَ عليه وافترَسَه، وإذا ذكرَ اللهَ تعالى انخنَس عدوُّ الله وتصاغَر وانقَمَع حتَّى يكونَ كالوَصع وكالذُّباب، ولهذا سُمِّيَ «الوسواس الخنَّاس»، أي: يوسوسُ في الصُّدور؛ فإذا ذكرَ الله تعالى خَنَس أي كفَّ وانقبضَ؛ وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «الشَّيطانُ جاثِمٌ على قلب ابن آدم، فإذا سَهَا وغَفَل وسْوَسَ، فإذا ذَكَر اللهَ تعالى خنَس»»(١).

والغفلةُ عن ذكره جالبةٌ له ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦**﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ]، ولهذا فإنَّ الذِّكر حصنٌ حصينٌ، وحرزٌ مكينٌ يحمي العبدَ ويقيه ـ بإذن الله تبارك وتعالى ـ منَ الشَّيطان الرَّجيم، وقد جاءَ في حديثٍ عن نبيِّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: أنَّ زكريَّا ـ عليه السَّلام ـ قال لقومه : «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ** ـ وذكر منها ـ: **وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِن الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ الله**»(٢).

---

(١) «الوابل الصَّيِّب» (ص: ٧٢).

(٢) «جامع التِّرمذي» (٢٨٦٣).

٥٢ـ فَقَدْ أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ يَوْمًا لِصَحْبِهِ بِأَنَّ كَثِيرَ الذِّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْرِدُ

وهذه أيضًا فائدةٌ عظيمةٌ من فوائد الذِّكر؛ أنَّ النَّبيَّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ عدَّ الذَّاكرين بأنَّهم السَّابقون في مضْمَار التَّنافُس في نَيل مَرضاةِ الله ـ جلَّ وعلا ـ وثوابِه، فإنَّ العاملين لنَيل ثوابِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأجره ـ سبحانه وتعالى ـ، مثلُهُم كمثل أناسٍ في مضمارٍ، وفي سباق في ذلك المضمار، ومثل الذَّاكرين في هذا كالسَّابق في مضمار السِّباق والمتَقدِّم على الأصحاب والرِّفاق، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «عمَّال الآخرة كلُّهم في مضمار سباق، والذَّاكرون هُم أسبقُهم في ذلك المضمار»[1]، يدلُّ لهذا ما جاء في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قال: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ الله؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ**»[2].

٥٣ـ وَوَصَّى مُعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلٰهَهُ عَلَى ذِكْرِهِ وَالشُّكْرِ بِالْحُسْنِ يَعْبُدُ

ومِن فوائد الذِّكر أنَّ النَّبيَّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وصَّى حِبَّه مُعاذ ابن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يسألَ إلهه، وأن يطلب منه ـ سبحانه وتعالى ـ العونَ على الذِّكر والشُّكر، وحُسن العبادة؛ وهذَا أعظمُ المطالب وأجلُّها أن ينالَ العبدُ العونَ على الذِّكر والشُّكر، وحسن العبادة، ثبت في «سنن أبي داود»، و«مسند الإمام أحمد» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**يَا مُعَاذُ! وَالله إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَالله إِنِّي لَأُحِبُّكَ؛ فَقَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ؛ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ**

(١) «الوابل الصَّيِّب» (ص: ١٥٨).

(٢) مسلم (٢٦٧٦).

عِبَادَتِكَ»[1]؛ وتخصيص هذه الثَّلاث بالذِّكر دليلٌ على أنَّها أفضلُ ما يَطلبُ العبدُ منَ الله العونَ عليه.

٥٤ـ وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قَدْ أَتَى لِنَصِيحَةٍ ... وَقَدْ كَانَ فِي حَمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَدُ

٥٥ـ بِأَنْ لَا يَزَلْ رَطْبًا لِسَانُكَ هٰذِهِ ... تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَتُسْعِدُ

هذه فائدةٌ عظيمةٌ من فوائد الذِّكر ألا وهيَ: أنَّ الذِّكر يسهِّل على العبدِ ويُيسِّر له فعلَ الأوامر وترك النَّواهي؛ وإذا كثُرت على العَبد، وثقُلت عليه، فليس هناك ما يسهِّلُها ويلينُها ويُيَسِّرها مثلُ ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ، والنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير في هذين البيتين لما رواه التِّرمذيُّ وابنُ ماجه من حديث عبد الله بن بُسر رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ؛ فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ؟ ـ أي أتمسَّكُ به ـ؛ قَالَ: **لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ الله**»[2]؛ ولكي نفهمَ هذا الحديثَ على بابه دونَ خطإٍ يجبُ أن نعرفَ مطلوبَ السَّائل عندما قال للنَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَام قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ» هل يريدُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ أن يعفيه من هذه الشَّرائع؟ أو يريدُ أن يذكُرَ له النَّبيُّ ﷺ أمرًا يجعل هذه الشَّرائعَ خفيفةً عليه، سهلةً يسيرةً ليست ثقيلةً على نفسِه ولا صعبةً، ولا ريبَ أنَّ مراده الثَّاني، وقد أرشده النَّبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ إلى العناية بالذِّكر؛ لكونه يذلِّلُ وييسِّر للعَبد الشَّرائع، ويُعينُه على فعلِها، بينما الغافلُ عن ذكر الله اللَّاهي السَّاهي إذا نُودي للصَّلاة

(١) «سنن أبي داود» (١٥٢٢)، و«مسند الإمام أحمد» (٢٢١٢٦)، وصحَّحه الألباني.

(٢) رواه التِّرمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣) واللَّفظ للتِّرمذي، وصحَّحه الألباني.

ثقُلت عليه، وإذا نُوديَ لغيرها منَ الطَّاعات الأخرى ثقُلت عليه، ولهذَا قال: «**وَأَوْصَى لِشَخْصٍ**» أي النَّبيَّ ﷺ، «**قَدْ أَتَى لِنَصِيحَةٍ**» طالبا النُّصح فيما يليِّنُ له الطَّاعة وييسِّر له القيامَ بها «**وَقَدْ كَانَ فِي حَمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَدُ**» أي: يجد مشقَّةً وجهدًا في حمل الشَّرائع، فيريد شيئًا يليِّنُ له العِبادةَ، ويسهِّلُ عليه الطَّاعةَ، فأوصاه ﷺ بالذِّكر.

«**هذِهِ تُعِينُ عَلَى كُلِّ الأُمُورِ**»؛ أي هذه الوصيَّة والعمل بها تعينُ على الطَّاعات والعبادات، وتسهِّلها على الذَّاكر، ولا يجد فيها ما يجدُه غيره من مشقَّة، واعتبر في هذا الباب كبير السِّنِّ من أهل الذِّكر الَّذي أصبح من كِبَر سنِّه ليس معه جسمٌ يحملُه، وتجد أنَّ الطَّاعة ليِّنةٌ عنده، ويخطو بخطواته المثقَلَة إلى المسجد خمس مرَّات ولا يملُّ ولا يكلُّ، وربَّما يستَغرق خطوُه إلى المسجد وقتًا طويلًا بجهدٍ جهيدٍ، فلا يملُّ من ذلك لسُهولة الطَّاعة عليه وليونَتِها، بينما تجد الشَّابَّ من أهل الغَفلة قويَّ الصِّحَّة صحيحَ البنيةِ يملُّ ويتضجَّر منَ العبادة، ويجد فيها ثقلًا وصعوبةً، ولو اعتنى بذكر الله للانت له الطَّاعاتُ، وسهُلت عليه العباداتُ ولم يجد لها مشقَّة، ولهذا فإنَّ أعظمَ عونٍ للعبد على المحافظة على الطَّاعاتِ، وانشراح الصَّدر لها، وليونتها في نفسه، وإقباله عليها بانشراح صدر أن يُعنَى بذكر الله، فذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ يليِّن الطَّاعات، ويسهِّل الأمور، ويشرحُ الصُّدور، ويعينُ على الخير.

«**وَتُسْعِدُ**» أي: باب من أبواب السَّعادة والرَّاحة والطُّمأنينة.

٥٦ـ وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لِأَهْلِهِ   بِجَنَّـاتِ عَـدْنٍ وَالمَـسَاكِنُ تُمْهَـدُ

ومن فوائدِ ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّه غِراس الجنَّة، وكلَّما ذَكَر العبد ربَّه ـ جلَّ وعلا ـ كان ذكره لربِّه غراسًا له في جنَّات النَّعيم، وهذا دلَّ عليه أحاديثُ منها ما رواه

التِّرمذي[1] عن عبد الله بن مسعود أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»، فكلَّما أكثر العبدُ من ذكر الله كثُر غِراسُه في الجنَّة بلا جهدٍ ولا مشقَّةٍ، بينما غراسُ الدُّنيا يحتاج من العبدِ إلى جهدٍ جهيدٍ، وعمل متواصلٍ حتَّى يكونَ له غراسٌ ونخلٌ وشجرٌ وثمارٌ.

«**وَأَخْبَرَ**» أي: النَّبيُّ ﷺ «**أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لِأَهْلِهِ**»؛ كلَّما ذكروا الله زاد الغَرسُ «**بِجَنَّاتِ عَدْنٍ**» أي: جنَّات خُلدٍ، يُقال: عدنَ فلانٌ بأرض كذا، أي: أقام؛ «**وَالمَسَاكِنُ تُمْهَدُ**» أي: مساكن الذَّاكرين ومنازلهم في جنَّات النَّعيم تمهَّد، وتهيَّأ لهم، ويُعَدُّ لهم فيها القِرى والنُّزل والنَّعيم المقيم ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر، بما يقدِّمه العبدُ من عبادات وطاعات؛ فكلُّ مَن يعملُ ذكرًا وطاعةً وعبادةً، فهو بهذا العمل إنَّما يمهِّد لنفسِه، ويهيِّئ لها نزلا في تلك الدَّار.

٥٧ـ وَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ يَذْكُرُ عَبْدَهُ ... وَمَعْهُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ يُسَدِّدُ

وهنا فائدتان عظيمتان من فوائد الذِّكر:

ـ الأولى: «**وَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ يَذْكُرُ عَبْدَهُ**» أي: الذَّاكر كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وكما جاء في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»[2]، وكفى بالذَّاكر شرفًا وفضلًا أن يذكره ربُّ العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ.

---

(١) (٢٤٦٢)، وحسَّنه الألباني.

(٢) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

ـ الثَّانية: «**وَمَعْهُ عَلَى كُلِّ الأُمُورِ يُسَدِّدُ**» أي: مع الذَّاكر بتسديدِه وتأييدِه وعونِه وتوفيقِه، جاء في «صحيح البخاري» تعليقًا، وفي «المسند» للإمام أحمد وغيره موصولًا عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**قَالَ الله تَعَالَى: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ**»(١)، وهي معيَّةٌ خاصَّةٌ تقتضي التَّسديدَ والتَّأييدَ، والعونَ والحفظَ، والكلاءةَ والرِّعايةَ، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في «الوابل الصَّيِّب»(٢): «هي معيَّةٌ بالقُرب والولاية والمحبَّة والنُّصرة والتَّوفيق كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا**﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿**وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾**﴾ [البقرة]، ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾**﴾ [العنكبوت]، ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة: ٤٠].

وللذَّاكر من هذه المعيَّة نصيبٌ وافرٌ كما في الحديث الإلهي: «**أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ**»... إلى أن قال: والمعيَّة الحاصلة للذَّاكر معيَّة لا يشبهها شيء، وهي أخصُّ من المعيَّة الحاصلة للمُحسن والمتَّقي وهي معيَّةٌ لا تدركُها العبارةُ، ولا تنالها الصِّفةُ، وإنَّما تُعلَمُ بالذَّوق».

وقد جُمعت هاتان الفضيلتان في حديث رواه الشَّيخان في «صحيحيهما» عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّ الله تعالى قال: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»(٣).

---

(١) البخاري في باب قول الله تعالى: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ**﴾، و«مسند الإمام أحمد» (١٠٩٨١)، وصحَّحه الألباني.

(٢) (١٣٢ ـ ١٣٣).

(٣) البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥).

٥٨ـ وَأَخْبَرَ أَنَّ الـذِّكْرَ يَبْقَـى بِجَنَّـةٍ وَيَنْقَطِـعُ التَّكْلِيـفُ حِـينَ يُخَلَّـدُوا

ومن فوائدِ الذِّكر العظيمة أنَّه يبقى في الجنَّة مع الذَّاكرين، وأهل الجنَّة يُلهَمون الذِّكر في الجنَّة كما يُلهَمون النَّفَس، ويبقى معهم ذكرُ الله ـ جلَّ وعلا ـ في جنَّاتِ النَّعيم، ولهذا جاء في «الصَّحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عندما ذكر النَّبيُّ ﷺ أوَّل زُمْرَةٍ يدخلونَ الجنَّةَ ذكر في الحديث أنَّهم: «**يُسَبِّحُونَ الله بُكْرَةً وَعَشِيًّا**»(١) فمع انقطاع التَّكليف في الجنَّة يبقى معهم ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ لذَّةً، وهناءةً، وقرَّةَ عينٍ.

قال ابنُ سعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿**دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾**﴾ [سُورَةُ يُونُسَ]: «أي: عبادتُهم فيها لله، أوَّلها تسبيحٌ لله وتنزيهٌ له عن النَّقائص، وآخرُها تحميدٌ لله، فالتَّكاليفُ سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنَّما بقي لهم أكمل اللَّذَّات، الَّذي هو ألذُّ عليهم من المآكل اللَّذيذة، ألا وهو ذكر الله الَّذي تطمئنُّ به القُلوب، وتفرحُ به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النَّفَس، من دون كُلْفَة ومشَقَّة»(٢).

٥٩ـ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْـرِهِ غَـيْرَ أَنَّـهُ طَرِيـقٌ إِلَى حُـبِّ الْإِلَـهِ وَمُرْشِـدُ

من فوائد الذِّكر أنَّه مِن أعظم الأسباب الجالبة لمحبَّة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأنَّ الإكثار من ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سببٌ عظيمٌ لنيل محبَّة الله لعبدِه، فالإكثار من ذكر الله ـ جلَّ وعلا ـ دليلٌ على حبِّ الذَّاكر لربِّه سبحانه، ومَن أحبَّ شيئًا أكثَر ذكرَه، ومَن

(١) البخاري (٣٢٤٦)، مسلم (٢٨٣٤).
(٢) (ص: ٣٥٨).

أحبَّ الله أحبَّه اللهُ، والله يقول: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤]، فالذِّكر والإكثارُ منه سببٌ عظيمٌ لنيل محبَّة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لعبده، فالله يحبُّ الذَّاكرين ـ جلَّ وعلا ـ.

ولو لم يكن في الذِّكر إلَّا هذه الفضيلة أنَّه طريقٌ إلى حبِّ الإله، وأنَّ اللهَ يحبُّ الذَّاكرين لكفَى دليلًا على شرفِ الذِّكر وفضلِه، وضرورةِ المحافظة عليه، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في «الوابل الصَّيِّب»[1]: «فمَن أراد أن ينالَ محبَّةَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فليلهج بذكره، فإنَّه الدَّرسُ والمذاكرةُ كما أنَّه بابُ العلم، فالذِّكر بابُ المحبَّة، وشارعُها الأعظم، وصراطُها الأقْوَم».

٦٠ـ وَيَنْهَى الفَتَى عَنْ غِيبَةٍ وَنَمِيمَـةٍ وَعَـنْ كُـلِّ قَـوْلٍ لِلدِّيَانَـةِ مُفْـسِدُ

وهذه فائدة أخرى عظيمة من فوائد الذِّكر أنَّه ينهى الفتَى عن الغيبة والنَّميمة.

والغِيبة: ذكر الإنسانِ أخاه في غيبته بما يكرَهُ.

والنَّميمة: نقل كلام النَّاس بعضُهم في بعض على وجه الإفسادِ، والوقيعة بينَهم.

وكلٌّ منهما من كبائر الذُّنوب، فمِن فوائدِ الذِّكر أنَّه ينهى العبدَ عن الغيبة، وعن النَّميمة، وينهاه عن كلِّ قولٍ سيِّءٍ كالفُحش والبَذاء، وغير ذلك من الأقوال السَّيِّئة، والكلماتِ البذيئةِ، واللِّسان إن لم يشتَغل بذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والنَّافع منَ القول، سينشغلُ بالكلام السَّيِّئ، والقولِ البذيء؛ لأنَّه خُلق للكلام، فإن لم يشغَله صاحبُه بكلام نافع مفيدٍ انشغَل بالكلام السَّيِّئ والقَول البذيء.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في «الوابل الصَّيِّب»[2]: «إنَّ في الاشتغال بالذِّكر اشتغالًا عن الكلام الباطل منَ الغيبة واللَّغو، ومدح النَّاس وذمِّهم، وغير ذلك، فإنَّ اللِّسانَ

(١) (ص: ٨٤).

(٢) (ص: ١٦٦).

لا يسكتُ البتَّة؛ فإمَّا لسانٌ ذاكرٌ، وإمَّا لسانٌ لاغ، ولابدَّ من أحدِهما فهي النَّفسُ إن لم تشغلها بالحقِّ شغَلَتْكَ بالباطل، وهُو القلبُ إن لم تسكنْهُ محبَّةُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سكنَه محبَّةُ المخلوقين ولابدَّ، وهُو اللِّسانُ إن لم تشغله بالذِّكر شغَلَك باللَّغو، وما هو عليك ولابدَّ فاختَر لنفسِك إحدى الخطَّتَين، وأنزلها في إحدى المنزلتَيْن».

فإذًا؛ من فوائد الذِّكر أنَّه يحصِّنُ الإنسانَ، ويمنعُه منَ الكلام السَّيِّئ من غيبة أو نميمة أو فحش أو بذاءٍ أو غير ذلك.

٦١ـ لَكَانَ لَنَا حَظٌّ عَظِيمٌ وَرَغْبَةٌ　　　بِكَثْرَةِ ذِكْرِ اللهِ نِعْمَ المُوَحَّدُ

«**لَكَانَ لَنَا حَظٌّ عَظِيمٌ**» هذا جوابُ الشَّرط في قوله «**وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ...**» أي: لو لم يكن في الذِّكر من فائدة إلَّا أنَّه يوصِل العبدَ لنيل محبَّةِ الله، ويحمي العبد ويقيه من الأقوال البذيئة والكلمات السَّيِّئة، لكان كافيًا في أن يكون لنا حظٌّ كبير من ذكر الله، كيف وقد جاءَ في الذِّكر فوائدُ كِثار، وآثارٌ غِزار لا حدَّ لها ولا عدَّ، قال ابنُ سعدي رَحِمَهُ الله في فضل الذِّكر[1]: «فإنَّ ذلك عبادةٌ يسبقُ بها العامل وهو مستريح، وداع إلى محبَّةِ الله ومعرفتِه وعون على الخير، وكفُّ اللِّسان عن الكلام القَبيح».

«**نِعْمَ المُوَحَّدُ**» أي: الَّذي يُخلَص له الدِّين ويُفرد ـ تبارك وتعالى ـ بالعبادة، وخيرُ ما ذَكَر به الذَّاكرون ربَّهم، وأفضلُ ما لهجت به ألسنتُهم كلمةَ التَّوحيد لا إله إلَّا الله، وهي كلمةٌ يسيرٌ لفظُها، عظيمٌ معناها، وحاجةُ العبادِ إليها هي أعظمُ الحاجات، وضرورتُهم إليها هي أعظمُ الضَّرورات.

(١) «تفسير السَّعدي» (ص: ٦٦٧).

٦٢ـ وَلَكِنَّنَا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا كَمَا قَلَّ مِنَّا لِلْإِلَهِ التَّعَبُّدُ

«**وَلَكِنَّنَا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا**» وهذا فيه سببُ قلَّة الذِّكر عند الإنسان وهو غلبةُ الجهل عليه، بينما إذا استضاءَ بضياء العلم ونورِه، وعرفَ فوائدَ الذِّكر وثمارَه وآثارَه؛ فإنَّ هذا ـ بإذن الله عزَّ وجلَّ ـ يكونُ عونًا له على ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والإكثار منه.

«**كَمَا قَلَّ مِنَّا لِلْإِلَهِ التَّعَبُّدُ**» أي: كما أنَّنا للسَّبب نفسه نقصِّر في العبادة، والعبد يحتاج بين وقتٍ وآخر إلى أن يذكِّر نفسَه بفوائد الذِّكر وآثاره وثماره العظيمة عليه في دُنياه وأُخراه ليكونَ ذلك عونًا له على الإكثار من ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ويلاحَظُ أسلوبُ الشَّيخ الرَّفيع، وتواضُعُه الجَمَّ، وحسنُ خطابِه، ففرَّقَ في الخطاب بين مَن يقولُ للمُخاطَبين: ولكنَّكم من جهلكم...، وبين مَن يقول لهم: ولكنَّنا من جهلنا... فيشركُ الجميعَ في الأمر بما في ذلكم نفسَه؛ استنهاضًا لهمم الجميع وترغيبًا لهم في ذكر الله، دون تمييز للنَّفس وتزكيةٍ لها، فكيف إذا كان القائلُ لهذا في مثل مقام الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ فضلًا ونبلًا، وإمامةً في العلم والدِّين.

وقد جمعَت هذه الأبيات مع وجازتها ثلاثَ عشرة فائدةً من فوائد الذِّكر، ومَن رام التَّوسُّع في ذلك فليطالع كتاب «الوابل الصَّيِّب» لابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ.

٦٣ـ وَسَلْ رَبَّكَ التَّوْفِيقَ وَالفَوْزَ(١) دَائِمًا فَمَا خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَقْصِدُ

«**وَسَلْ رَبَّكَ التَّوْفِيقَ وَالفَوْزَ دَائِمًا**» أي: كُن دائم السُّؤال، وأكثِر منَ الدُّعاء والإلحاح على الله ـ تبارك وتعالى ـ، وسؤالِه التَّوفيقَ والفوزَ.

---

(١) في نسخة (ص): والعون.

والتَّوفيق: أن لا يكِلَكَ الله إلى نفسِك، وأن يُعينَكَ على مصالح دينك ودنياك؛ وضدُّه الخذلان: وهو أن يوكَلَ الإنسانُ ـ والعياذ بالله ـ إلى نفسِه ويخلَّى بينه وبينها، والفوز: هو حصولُ الرِّبح ونفيُ الخسارة.

«**دَائِمًا**» أي: باستمرار كُن سائلًا لله طامعًا في نواله وعطائه.

«**فَمَا خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَقْصِدُ**» فهو سبحانه لا يخيِّبُ من دعاه، ولا يردُّ من ناداه، وهو القائل ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦**﴾ [سورة البقرة]، والقائل سبحانه: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠**﴾ [سورة غافر].

٦٤ـ وَصَلِّ إِلٰهِي مَعْ سَلَامٍ وَرَحْمَةٍ ... عَلَى خَيْرِ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْخَلْقِ يُرْشِدُ

أي: صلِّ على صفوةِ الخلق، وإمام الهدى، وسيِّد الأوَّلين والآخرين، وخير مَن كان للخلق يرشدُ صلواتُ الله وسلامُه عليه.

٦٥ـ وَآلٍ وَأَصْحَابٍ وَمَنْ كَانَ تَابِعًا ... صَلَاةً وَتَسْلِيمًا يَدُومُ وَيَخْلُدُ

وأيضًا على آله وعلى أصحابه الكرام ومَن كان تابعًا لهم بإحسان صلاةً وتسليمًا دائمين مستمرَّين.

وبهذا ينتهي التَّعليق على هذه المنظومة النَّافعة الماتعة المفيدة لهذا الإمام؛ اللَّهمَّ اغفر له وارحمه وأسكنه جنَّات النَّعيم، وأحلَّه في الفردوس الأعلى وجميع علمائنا، واغفر لنا أجمعين، ولا تكلنا إلى أنفسِنا طرفة عين إنَّك سميع الدُّعاء، وأنت أهل الرَّجاء، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

فهرس